توطئة:

لا بد لكل بحث من ضبط المجال الذي يدور فيه، و المفاهيم العاملة التي يعتمد عليها، فيتعين بذلك موقعه من الدراسات و الاختصاصات المتنوعة و المتداخلة، بحيث يتمكن المتلقي ــ جراء ذلك ــ من ضبط المفاتيح التي تسمح له بالولوج في البحث، و هي مفاتيح قائمة على تلك المفاهيم، بطبيعة الحال. و هذه ضرورة إبستيمولوجية معروفة، و هو منهجنا عبر كل مضامين البحث، حيث سنحاول حصر ما رأيناه يمس بالموضوع من قريب أو بعيد.

I – مفهوم النص:

يرتكز عمل اللساني النصي على النص أساسا، و لكن ما هو النص؟

يقال في اللغة نص الشيء رفعه و أظهره، و فلان نص أي استقصى مسألته عن الشيء حتى استخرج ما عنده، و نص الحديث ينصه نصا؛ إذا رفعه، و نص كل شيء منتهاه [1].

و النص مصدر و أصله أقصى الشيء الدال على غايته أو الرفع و الظهور (ج. نصوص)، « و نص المتاع: جعل بعضه فوق بعض » [2]، و هو صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف.

و عند الأصوليين لقي هذا المصطلح اهتماما كبيرا باعتباره طرفا أو جهة من جهات معادلة « علاقة اللفظ بالمعنى »، و التي كان لها حظ الأسد من الاهتمام عندهم، فنجدهم – جراء ذلك ــ أطلقوا على بعض الألفاظ مصطلحات عديدة تبعا لدرجات ظهور المعنى فيها و خفائه، أما الذي يرتبط بوضوح المعنى، فذلك هو الظاهر و النص و المفسر و المحكم. و أما الذي يرتبط بغموض المعنى فذلك هو الخفي و

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994/1414، ج7، ص 42 – 44.

[2] أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1960/1380، ج 5، ص 472.

المشكل و المجمل و المتشابه [3]. و مدار حديثنا في هذا المقام هو « النص الذي نجد فيه زيادة وضوح؛ إذ يفهم منه معنى لم يفهم من الظاهر »[4]، أي ما رفع بيانه إلى أقصى درجة. و في هذا التعريف عودة للمعنى اللغوي للنص الذي يفيد الإظهار و البيان و الرفع. و منه « النص القرآني» و « نص السنة» أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الأحكام، إنه إذن اللفظ الدال على معنى لا يحتمل غيره؛ فالنص « ما ازداد وضوحا على الظاهر، لمعنى في المتكلم، و هو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى.. و النص ما لا يحتمل إلا معنى واحدا، و قيل ما لا يحتمل التأويل » [5].

و في تعريف آخر:« هو ما دل على معنى سيق الكلام لأجله دلالة تحتمل التأويل أو التخصيص أو النسخ » [6]. بحسب ما تستقيه القرائن و المساقات، و بناء عليه النص قسمان: أحدهما يقبل التأويل و هو نوع من النص مرادف للظاهر، و الثاني: لا يقبل التأويل و هو النص الصريح، كلفظ «خمس» [7].

و من الملاحظ أن المعنى يدور في كل ما سبق « النص عند اللغويين » و النص عن الأصوليين، حول محاور هي:

1. الرفع .
2. الإظهار.
3. ضم الشيء.
4. أقصى الشيء و منتهاه.

---

[3] ينظر: السيد أحمد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، مكتبات عكاظ للنشر، الإسكندرية، ط1، 1981/1401 ص 144 – 145.
و محمد توفيق محمد سعد، دلالة الألفاظ عند الأصوليين، مطبعة الأمانة، مصر، القاهرة، ط1، 1407هـ/1987م، ص 360– 374.
و مصطفى السعدني، مدخل إلى بلاغة النص، منشأة المعارف الاسكندرية، 1994، ص 46– 52 و ص 8– 9.
[4] السيد أحمد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، ص 144.
[5] الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب اللبناني / المصري، بيروت / القاهرة، ط1، 1991، ص 251.
[6] محمود توفيق محمد سعد، دلالة الألفاظ عند الأصوليين، ص 367.
[7] ينظر: السيد أحمد عبد الغفار، مرجع سابق، ص 146.

و ما يمكن قوله على هذه الملاحظة أن الرفع و الإظهار يعنيان أن المتحدث أو الكاتب لا بد له من رفع نصه و إظهاره حتى يفهمه المتلقي. أما ضم الشيء إلى الشيء فهي إشارة إلى الاتساق و الترابط الحاصل بين الجمل؛ إذ كل تعاريف النص تشترك في « أن النص ضم الجمل بعضها إلى بعض بكثير من الروابط حتى تتسق. و كون النص أقصى الشيء و منتهاه، فذلك تمثيل لكونه أكبر وحدة لغوية يمكن الوصول إليها. و بهذا، فكأن التعريفات اللغوية المعجمية للنص تشترك و لو بحبل رفيع مع ما سيرد ذكره في التعريفات الاصطلاحية.

و في الاصطلاح، تعددت مفاهيم النص بتعدد التوجهات المعرفية و النظرية و المنهاجية المختلفة، و عليه فإن الاختلاف حول ماهية النص يكمن أساسا في اختلاف التصور، و الغاية من دراسة؛ فحدود النص و نظريته، و مفهومه يتجسد و يتبلور وفق تلك المنطلقات العديدة.

و النص – في الاصطلاح اللساني، لم يكن أوفر حظا من النص عند الأصوليين، فقد تعددت تعريفاته بتعدد وجهات النظر؛ حيث لم يكن مصطلح « نص » أسعد حالا و حظا من مصطلح «جملة»، فثمة اختلاف شديد بين هذه الاتجاهات في تعريف النص إلى حد التناقض أحيانا، و الإبهام أحيانا أخرى.

فلا نجد له تعريفا يعترف به عدد من الباحثين في اتجاهات لسانيات النص بشكل مطلق، لأنها اعتبرت فرعا علميا متداخل الاختصاصات، من جهة. كما اعتبرت علما يركز على النصوص في ذاتها و على أشكالها و قواعدها و وظائفها و تأثيراتها المتباينة من جهة أخرى. إنها تعريفات تميل كلها إلى خلق حالة منسجمة من النظام و التشاكل و التماثل بين مختلف المستويات التكوينية و الصرفية و الصوتية و الدلالية للنص [8]، فهو الموضوع الرئيس في التحليل و الوصف اللغوي. و بناء عليه حاول بعض العلماء تعريفه و تمييزه عن غيره معتمدين على المكونات و العناصر التي

---

[8] فاضل ثامر، اللغة الثانية (في إشكالية المنهج و النظرية و المصطلح في الخطاب النقـدي العربـي)، المركـز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1994، ص 45.

يتألف منها أي من خلال مفهومه و تراكيبه و ترابطه؛ فنجد « برنكر » (Brinker) يجعل من النص « تتابع مترابط من الجمل، و يستنتج من ذلك أن الجملة بوصفه جزءا صغيرا ترمز إلى النص، و يمكن تحديد هذا الجزء بوضع نقطة أو علامة استفهام أو علامة تعجب ثم يمكن بعد ذلك وصفها على أنها وحدة مستقلة نسبيا [9].

و علق «شبلنر»(Chepilnner) على هذا التعريف بأنه دائري، يوضح النص بالجملة، و الجملة من خلال النص، و أنه تعريف غير منهجي من الناحية العلمية؛ لغموض الرموز و العلاقات التي يتضمنها، و اتساع الوصف، و من ثم لا يمكن تطبيقه [10]، و لعل ما يهم « شبلنر » هو أن النص تتابع، و أن الجملة جزء منه، فالنص بنية معقدة متشابكة، و ثمة علاقة بين الجزء (الجملة) و الكل (النص).

الأمر الذي جعل الباحثين هاليداي و حسن يقولان: «... أي فقرة منطوقة أو مكتوبة على حد سواء مهما طالت أو امتدت..هي نص.. و النص وحدة اللغة المستعملة، و ليس محددا بحجم.. و النص يرتبط بالجملة بالطريقة التي ترتبط بها الجملة بالعبارة.. و النص، اعتباره لا شك أنه يختلف عن الجملة في النوع. و أفضل نظرة إلى النص اعتباره وحدة دلالية. و هذه الوحدة لا يمكن اعتبارها شكلا ، لأنها معنى، لذلك فإن النص الممثل بالعبارة أو الجملة،إنما يتصل بالإدراك (الفهم)، لا بالحجم.. » [11]، فيمكن أن يكون النص كلمة واحدة، كما يمكن أن يكون جملة واحدة أو امتداد من الجمل. فالنص هو كل متتالية من الجمل بينها علاقات، و تتم هذه العلاقات بين عنصر و آخر وارد في جملة سابقة أو لاحقة، أو بين عنصر و بين متتالية برمتها سواء كانت سابقة أو لاحقة، لأن النص لا يخضع لقياسات الحجوم، و درجات الطول و العرض، فقد يكون كلمة، و قد يكون تركيبا مصغرا أو مجموعة

---

[9] برند شبلنر، علم اللغة و الدراسات الأدبية، ترجمة محمود جاد الرب، جامعة الملك سعود الريـــاض، د.ط، ص 188.

[10] برند شبلر، المرجع نفسه، ص 188–189. و ينظر سعيد حسن البحيري، علم النص (المفاهيم و الإتجاهـــات)، ص 103.

[11] Halliday M.A.K and Ruquaya Hassan, cohesion English , longman, London , 1976 , p: 1-2

تراكيب تشكل عملا [12]. و هذا يحيلنا إلى المقابلة بين الجملة و النص، و التي تجسدت في المقارنة التي عرضها«دي بوقراند» (Robert De Beaugrande) وخص لها فصلا «النص في مقابل الجملة »في كتابه (النص والخطاب والإجراء)[13]؛ لأن النص ليس الجملة، إنه أغنى عناصر منها [14].

و جاء في معجم مصطلحات اللسانيات، أننا نطلق مصطلح «النص » على مجموعة الملفوظات (أو العبارات) اللسانية التي تخضع للتحليل؛ فالنص هو « نموذج سلوك لساني سواء كان منطوقا أو مكتوبا »، و قد أطلق « هيمسليف (Louis Hjelmslev) مصطلح « نص »بمعنى جد واسع؛ إنه ملفوظ مهما كان، سواء كان منطوقا أو مكتوبا، طويلا أو قصيرا، قديما أو جديدا، فالكلمة «قف» هي نص أيضا، مثلها مثل الرواية الطويلة.. [لأنه بكل بساطة] كل مادة لسانية مدروسة تشكل بالتساوي نصا » [15]؛ و النص – بذلك – مجموعة منتهية من العبارات المكتوبة، تكون الخطاب اللاحق النوعي، و المطابق باستمرار لموقف إنتاجيتها، الأمر الذي يجعلها تخضع للتحليل،باعتبارها بنية كلية، ينظر إليها عبر عدة مستويات (صوتية، تركيبية، دلالية، تداولية). و هذا ما جعل البعض يضيفون صيغة « المنغلق على نفسه »[16] أي المكتفي بذاته، و هو الشيء الذي يجعل من التحليل يبدأ بالوحدة الكبرى التي ترسم حدودها عن طريق تعيين الفواصل و القواطع الملموسة لاتصالها،و معنى ذلك أنه علينا أن نضحي بفكرة الطول في سبيل الوصول إلى النص المستدير المكتمل الذي يحقق قصدية قائله في عملية التواصل اللغوية، كما أنه قد تستخدم في هذا

---

[12] عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية و ثلاثية الدوائر البلاغية، ص 142.

[13] ينظر: روبرت دي بوقراند، النص و الخطاب و الإجراء، ص 89-94.

[14] عزة آغا ملك، تركيب المضمون الروائي(الوحدات الروائية) الفكر العربي المعاصر، دار الانمـــاء القـــومي، بيروت، العدد 42، تشرين الثاني، كانون الأول،1986، ص 77.

[15] Duboit et autres , Dictionnaire de linguistique (discoure –texte).larousse, paris, 1973. p.446.
et:galissan & coste ,dictionnaire de didactique des langues ,librairie hachatte, France, paris, 1976, p:560.

[16] صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، العـــدد 164، صفر 1413 هـ/أغسطس 1992، ص 232.

« انغلاقه على نفسه » كمحور لتحديد هذا الاكتمال، لا بمعنى عدم قبوله لتأويلات مختلفة، لأن النص هو « القول اللغوي المكتفي بذاته، و المكتمل في دلالته » [17].

و وفق ذلك، إن النص إنجاز لغوي يضم مجموعة من الدوال و المدلولات ضمن نسيج متباين الجذور و تنظيم عضوي له خاصية التعددية القرائنية، و يجري في سياقات بيانية تحمل درجات من التعالق بين الفكر و اللغة [18].

كما تجدر الإشارة إلى أن النص أكثر من مجرد خطاب أو قول؛ إذ إنه موضوع لعديد من الممارسات السميولوجية التي يعتد بها على أساس أنه ظاهرة عبر لغوية؛ لأنها مكونة باللغة، إنه ظاهرة غير قابلة للانحصار في مقولاتها، باعتبار أنه "جهاز عبر لغوي"، يعيد توزيع نظام اللسان و يكشف عن العلاقة بين الكلمات التواصلية مشيرا إلى بيانات مباشرة تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال السابقة والمتزامنة معها. والنص لذلك، إنما هو إنتاجية؛ إنه تصور يرسم مجموعة من العمليات عن طريق مدلولاته الموجودة والمنتجة والمحولة في النظير النصي.[19]

و لم يقتنع لوتمان (L.Lotman) بكل التعاريف السابقة؛ حيث وجد النص يعتمد على عدة مكونات:

1- **التعبير:** يتمثل النص في علاقات محددة، تختلف عن الأبنية القائمة خارج النص، فإذا كان هذا النص أدبيا، فإن التعبير يتم فيه أولا من خلال علامات اللغة الطبيعية، – التعبير – في مقابل اللاتعبير يجبرنا على أن نعتبر النص تحقيقا وتجسيدا ماديا له.

2- **التحديد:** يحتوي النص على دلالة غير قابلة للتجزئة مثل " أن يكون قصة" أو " أن يكون وثيقة " أو " أن يكون قصيدة " مما يعني أنه يحقق وظيفة ثقافية محددة.

---

[17] صلاح فضل،المرجع نفسه، ص 232.

[18] عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية و ثلاثية الدوائر البلاغية، ص 144.

[19] Galissan & Coste ,dictionnaire de didactique des langues , p: 562.

و ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 112.

و ينتقل دلالتها الكاملة. و القارئ عرف كل واحد من هذه النصوص بمجموعة من السمات. و بهذا السبب فإن نقل سمة ما إلى نص آخر إنما هو وسيلة جوهرية لتكوين دلالات جديدة... و يؤدي تراتيب النص و انقسام نظامه إلى نظم فرعية مركبة إلى قيام مجموعة من العناصر – التي تنتمي إلى بنيته الداخلية – بالبروز كحدود واضحة لنظم فرعية من أنماط مختلفة، و ذلك مثل حدود الفصول و المقاطع و الأشطار و الأبيات و الفقرات.

3- الخاصة البنيوية: إن النص لا يمثل مجرد متوالية (Séquence) من مجموعة علامات تقع بين حدين فاصلين؛ فالتنظيم الداخلي الذي يحيله إلى مستوى متراكب أفقيا في كل بنيوي موحد لازم للنص، فبروز البنية شرط أساسي لتكوين النص.[20] لأن النص بنية مركبة متماسكة.

و أما الباحثان « ديتر و فولفاقانج» (Dieter wolfgang & viehweger hei nemann) فيجدان مفهوم النص مفهوم لا يزال يستخدم بشكل مختلف؛ فمن ناحية يفهم النص من زاوية المنتج على أنه تحقيق لغوي لحدث شمولي بما يناسب ذلك من قاعدة قضوية، فيفهم النص على أنه وجود ذهني، يتحقق لغويا في عملية إنتاج النص خطوة خطوة و يبعد إلى الخارج. و من ناحية أخرى، ألقيا الضوء على النص من زاوية المفسر؛ أين ينشأ من النص ــ مرة أخرى ــ، تمثيل لمعناه أو وظيفته في وعي المفسر. و أخيرا من ناحية ثالثة، فقد قدما لنا مفهوما للنص يعتمد على محصلة النشاط اللغوي أي على الحضور الممثل كتابيا أو شفهيا، و القابل للملاحظة جراء ذلك »[21]. فهو يعود على الأقوال التي تمثل بإحدى هاتين الصيغتين أو تنظيم أحد هذين النمطين من الوجود.

و قد اعتمدا – في كتابهما – على التعريف الأخير للنص؛ حيث يفهم النص في إطار عملية التواصل، فلا يمكن تحقيقه إلا باستدعاء الحركات و تعبيرات الوجه

---

[20] سعيد حسن بحيري،علم لغة النص، ص 116 – 117.

[21] ديتر & فولفجانج، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص 169.

المصاحبة لتكوينه، و هذا يحيلنا إلى تعريف علماء تحليل الخطاب للنص بأنه « التسجيل الكلامي للحدث التواصلي » [22]، أي أنه تعريف يرتكز في مضمونه على الوظيفة التواصلية، و يبدو النص ــ هنا ــ وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب **كفعل تواصلي**؛ فالنص هو مجموع البيانات النسقية التي تتضمن الخطاب و تستوعبه. بتعبير آخر، إن الخطاب هو الموضوع الإمبريقي و المجسد أمامنا كفعل، أما النص فهو الموضوع المجرد و المفترض، إنه نتاج للغتنا العلمية » [23]؛ باعتباره إنتاجا مباشرا لعملية الكلام، و يتشكل – في جملته – من الدوال و المدلولات.إنه رسالة ناجمة عن نظام محدد من المفاهيم و الشفرات، أو هو وحدة لغوية مستقلة.

و عندما نعتبر النص نسيجا لغويا محبكا، تجمع بينه العديد من العلاقات حتى يحدث من خلاله الفهم و الإفهام، فيعني هذا أن النص منتج لعملية التشابك المستمر و الانسجام و التماسك التي يقيمها الناص (الكاتب) للكلمات و الجمل و المعاني التي تعطينا ــ في النهاية ــ نصا، كما يعطي العنكبوت شبكة من ذاته؛فالناص يعادل أو يوازي العنكبوت في هذه الوجهة المعرفية و الشبكة توازي أو تعادل الكلمات و الجمل و المعاني التي تؤلف النص [24].

أما تعريف فاولر (Fowler) – في كتابه « اللسانيات و الرواية » – فنجده يعطي للنص اتجاهات مختلفة، و لكن تركيزنا سيكون على تعريف النص من الوجهة اللسانية حيث نجده يقول: « إن النص يعني البنية النصية الأكثر إدراكا و معاينة.. و عند اللساني هذه البينة هي متوالية من الجمل المترابطة فيما بينها، فتشكل استمرارا و انسجاما على صعيد تلك المتوالية » [25]، فحصر هذا التعريف النص في البنية الشكلية الخارجية المتمثلة في الكتابة كمظهر خارجي نشاهده بأم أعيننا، كما أن فاولر:

---

[22] براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد لطفي الزليطي و منير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، 1418هـ/1997، ص 227.

[23] سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي (النص و السياق)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2001، ص 12.و ينظر: حسن سعيد بحيري، المرجع نفسه، ص 116.

[24] www. Google. Com / search ? / www.nizwa.com/ volume 11/p66-73.

بشيرا برير، النص الأدبي و تعدد القراءات. html

[25] المرجع نفسه، ص 16.

أدخل ضمن النص الجوانب الفيزيولوجية في تشكيل النص مثل التقسيم (لعبة البياض و السواد، و الزمن..)، و هذه البنية هي متوالية من الجمل يحكمها الترابط و الانسجام الحاصل بينها، و هو ما ذهب إليه «فان ديك » (Teun Van dijk) في تعريفه للنص المبني على افتراض مفاده، أن أي تحديد للنص يقتضي نظرية أدبية، و عليه دعا إلى إعادة بناء الأقواس ليس على شكل جمل، و إنما على شكل وحدة أكبر، و هي النص، و التي هي البناء النظري التحتي المجرد لما يسمى عادة خطابا » [26]. و هذا ما سيحدث نوعا من التجاوز، تجاوز الجملة إلى الخطاب، كتجل عملي لوحدة مجردة هي النص و من ثم إلى تحقيق غاية أعم، و هي تفسير العلاقات النسقية بين النص و بين السياق التداولي؛ و النص هو المكتوب و المنطوق على حد سواء. كما أنه « عبارة عن صورة خاصة من الأقوال اللغوية.. و نصوص اللغة الطبيعية هي الموضوع الأساسي لعلم النص، و ليس المنتمية إلى نظم سيميائية أخرى مثل نظم الموسيقى، و الصورة، و السينما، و الرقص.. إلخ، و من الممكن أحيانا أن يطلق وصف النص على أشكال من التواصل المكتوب بلغة اصطناعية مثل لغة الرياضات، و لغة المنطق و لغة الآلات [27].

و لكن فان ديك، يستدرك ذلك بقوله: « ليست جميع المتواليات من الكلمات أو الجمل داخلة في مفهومنا الحدسي للنص » [28]، و عليه يرى نفسه ملزما على التفرقة بين الأقوال النصية، و الأقوال غير النصية وفق مفهومه الحدسي للنص القائم على إعتبار النص متوالية من الجمل المنتظمة و المنسجمة.

و على الأرضية التي تحرك فوقها «فان ديك »نجد كل من هاليداي و رقية حسن (Halliday Michael & Ruqaiya Hasan) يحاولان الانطلاق منها أيضا، من خلال وقوفهما على ضرورة إقامة نظرية لسانية تسعى إلى الاهتمام بالنص على

---

[26] محمد خطابي، لسانيات النص (مدخل إلى إنسجام الخطاب)، المركز الثقافي العربي، المغـرب، ط1، 1991، ص 29.

[27] فان ديك، النص بناته و وظائفه (مدخل أولي إلى علم النص)، ترجمة: محمـد العمـري ــ إفريقيـا الشـرق، المغرب، ط1، 1996، ص 49.

[28] فان ديك: المرجع نفسه، ص 51.

نطاق أوسع، فقدما لنا تصورا حول النص، مع إبراز عنصر الإنسجام في تركيبته، و قد سبقت الإشارة إلى جانب من هذا التعريف. أما الآن فنقدم جانبا آخرا و هو اعتبار النص: « وحدة لغوية في طور الاستعمال (الإنجاز) » [29]. فربط النص هنا بالمقام و يحيلنا إلى مقولة "نص في موقف" التي قال بها صلاح فضل و كثيرون [30].كما عد مصطلح الموقف (Situation)، و مصطلح النص وجهين متداخلين كوجهي العملة الواحدة؛ فالنص هو النص الظاهر المكتوب، و السياق هو النص الخفي المصاحب للنص الظاهر، و يتمثل ذلك في الأحوال و الظروف المحيطة بإنتاج النص، لأنه لغة جاءت لتخدم هدفا و ظيفيا وجد في موقف معين و سياق معين، إنه شكل لساني لتفاعل اجتماعي.

و النص–هنا– ليس وحدة نحوية مثل الجملة أو شبه الجملة بل هو أساسا وحدة دلالية و تحدثا عن ذلك في موضع من الكتاب بعنوان « طول النص » فيقولان « يمكن للنص أن يكون له أي طول لأنه ليس سلسلة قياسية من الوحدة النحوية... و بعض النصوص تتشابه في الحقيقة من حيث أنها يمكن أن تكون أقل من جملة واحدة في التركيب النحوي مثل التحذيرات، العناوين، الإعلانات... » [31].و قد بينا قبل هذا الموضع أن النص وحدة دلالية و تجلي ذلك في قولهما:« إن النص وحدة دلالية.. و ليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقق بها النص »[32]؛ فهو يختلف عنها نوعيا رغم كونه يتألف منها؛ فالنص لا يتعلق بالجمل، إنما يتحقق بواسطتها، و مشفر فيها [33]. الأمر الذي يجعلنا نؤكد أن هذا الجانب من التعريف يقترب من تصور "فان ديك" (Vandijk)، الذي اعتبر النص وحدة مجردة عليا، لكونه وحدة دلالية. إنها تعريفات ركزت على عنصري الوحدة و الانسجام، و هما عنصران ضروريان لإنتاج

---

[29] Halliday M.A.K and Ruqaiya Hassan, cohesion in English , p. 12.

[30] صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص 98.

[31] Halliday M.A.K and Ruqaiya Hassan, cohesion English , p. 294.

[32] Halliday M.A.K and Ruqaiya Hassan, cohesion in English , p. 2.

[33] سعيد يقطين، إنفتاح النص الروائي، ص 17.

الدلالة بمختلف أبعادها « فالنص بمعناه الاصطلاحي يقتضي وجود انسجام بين أجزائه» [34].

نستنتج من كل هذه التعاريف السابقة أن النص هو الشغل الشاغل للباحثين في ميدان **لسانيات نص** من جهة. و من جهة أخرى، هي تعريفات تشترك في نقاط جوهرية رئيسية :

1- النص هو ما نطق و ما كتب على حد سواء.

2- لقد راعت التعريفات الجانب الدلالي و التداولي، و السياقي الوظيفي، أي مراعاة صلة النص بالموقف، الذي يتضمن المرسل و المستقبل و قناة الإتصال.

3- هي تعريفات ركزت على الاتساق و ضرورته ليكون النص نصا و لعل هذه التعريفات، بجوانبها المختلفة، و بزواياها المتعددة لتبعد الرؤى، و نستطيع جمعها و لم جوانبها في التعريف الذي قدمه لنا «روبرت آلان ديبقراند» و«الفجانج دلايسلر» (R.de BEAUGRANDE & Woelfgang Dressler)، و هو تعريف يجمع في طياته أغلب مفاهيم النص السابقة، إذ إنه يراعي المتحدث (المرسل)، و المستقبل (المرسل إليه). و السياق كما يراعى النواحي الشكلية و الدلالية للرسالة. « إن النص هو حدث تواصلي يلزم لكونه نصا أن يتوافر له سبعة معايير للنصية مجتمعه، و يزول عنه هذا الوصف، إذا تخلف واحد من هذه المعايير » [35]، و هي معايير تركز على طبيعة كل من النص و مستعمليه (المتحدث و المتلقي)، و السياق المحيط بالنص، و هذه المعايير هي: الاتساق، الانسجام، القصدية، المقبولية، الإخبارية، و الموقفية، و التناص.و هي مدار حديثنا في المبحث التالي.

---

[34] محمد مفتاح، ديناميكية النص (تنظير و إنجاز)، المركز الثقافي العربي، المغـرب، ط 2، حزيـران، 1990، ص 162.

[35] صبحي أبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية و التطبيق (دراسة تطبيقية على السور المكيـة)، الجـزء الأول، دار قباء للطباعة و النشر، القاهرة، الطبعة الأولـى، 2000/1431.، و ينظـر: سـعيد حسـن بحيـري، علم لغة النص، ص 146.

II – مفهوم النصية:

إن مفهوم النصية يقوم عند مفكري لسانيات النص على أساس مفهوم النص بمختلف جوانبه، فهي خاصية تطلق عليه كونه نصا، فيتميز عما ليس نصا، لأنها مجموعة معايير تحدده طالما كان كذلك.

و النصية أهم مبحث في لسانيات النص، و قد خصت النص بالدراسة من حيث هو « بنية مجردة تتولد بها جميع ما نسمعه، و نطلق عليه لفظ "نص" و يكون ذلك برصد العناصر القارة في جميع النصوص المنجزة مهما كانت مقاماتها و تواريخها و مضامينها » [36]، و من أجل أن تكون لكل نص نصية يجب أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية؛ بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة. كما وضح كل من هاليداي و حسن (Halliday Michael & Hasan Ruqaiya)، و هذه المعايير هي خصائص معينة، تميز النصوص بتوافرها فيها، و تتنافى النصية إذا تنافت هذه المعايير من المقطع اللغوي أو المتتالية الجملية ، و لتوضيح الكلام أكثر نقدم التخطيط الآتي الذي اقترحه الباحثان [37] :

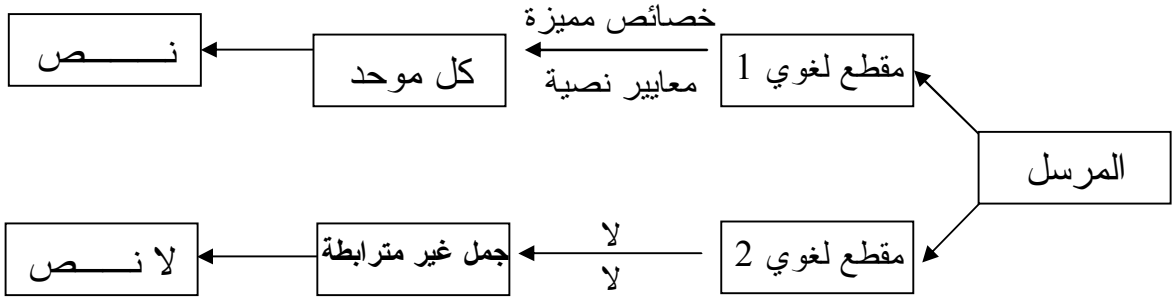

و يرى «هارتمان» (Hertman) – كسابقيه– أن النص هو الموضوع الرئيس في التحليل و الوصف اللغوي. و أن تحليل النصوص ما هو إلا تحليل يتجاوز النظام إلى كيفيات الاستخدام، و تفسير النصوص عنده يقوم على عناصر داخلية و أخرى خارجية

---

[36] الأزهر الزناد، تسيج النص، ص 18.
[37] محمد خطابي، لسانيات النص، ص 12–13.

(خارج النص)؛ إنه بإيجاز البحث عما يجعل من النص نصا (دراسة وسائل بناء النص) [38].

أما «إريك انكفيست» (N.E.Enkvist)، فقد أشار إلى النصية في معرض حديثه عن «البناء النصي السليم »، و الذي اعتبره « وظيفة تتكون من ثلاثة أنواع من العناصر الرئيسية:

أولا: إنه يعتمد على البناء النحوي السليم للجمل المنفردة؛ فالنص المتكون من جمل غير سليمة البناء يعد نصا غير سليم البناء.

ثانيا: إنه يعتمد على النمط الذي تنسج به الجمل، و تربط ببعضها، حتى تؤلف النص.

ثالثا: و كما أشرنا آنفا إنه يعتمد على السياق » [39] فالبناء النصي السليم ــ هنا ــ هو صورة أخرى للنصية. طالما يبحث كيف يكون النص نصا.

أما النصية عند «قراند» و «دلايسلر»، فهي مشروع لإيجاد النصوص و استعمالها – كما أسلفنا القول – و هي سبعة كما جاءت في كتاب «قراند»، المعنون «النص و الخطاب و الإجراء »، و هي كالتالي:

1- الاتساق (Cohesion *):

و هو يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي، الأمر الذي يمكننا من استعادة هذا الترابط » [40]. و لن نطنب في هذا العنصر، لأنه مدار الحديث في المبحث التالي، تماشيا مع طبيعة البحث.

---

[38] سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 102، 103.

[39] نيلس أريك انكفيست، الأسلوبية اللسانية، ترجمة أحمد مؤمن معهد اللغات الأجنبية، مطبوعات منتوري، قسنطينة، فيفري 2001، ص 113.

[*] ترجم هذا المصطلح تمام حسان إلى «السبك» و اعتمد مختار محمد مصباحي «الترابط النسقي، كما اعتمد الأستاذ بشير أبرير الإنسجام، و محمد خطابي عربه«الإتساق» و الفقي اعتمد «الترابط الشكلي ».

[40] روبرت دي بوقواند، النص و الخطاب و الإجراء، ص 103.

2-الانسجام (Coherence**):

و يتطلب هذا المعيار العديد من الإجراءات، الأمر الذي تتنشط بها عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي و استرجاعه، و تشتمل الوسائل التي تحقق الالتحام في هذا المعيار على العناصر المنطقية كالسببية و العموم و الخصوص، و معلومات عن تنظيم الأحداث و الأعمال و الموضوعات، و المواقف، و السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية، و يدعم الالتحام بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص، مع المعرفة السابقة بالعالم » [41]؛ فالانسجام، هو ترابط يتحقق على مستوى المعاني و الأفكار الواردة في النص.

و عندما يكون النص مترابطا من الناحية النحوية الشكلية، و لا يكون مترابطا من الناحية الفكرية. نقول أن نصيته لم تكتمل بعد [42]، لأن الاتساق و الانسجام و جهان لعملة واحدة هي النص؛ فالأول يعني بكيفية ربط مكونات النص السطحي (الكلمات)، و الثاني يعنى بكيفية ربط تصوراته و مفاهيمه. إنهما يتكاملان تكاملا حاصلا و قويا في تشكيل عالم النص وديناميته ، إذ ينبغي على النص في مجمله أن يتسم بسمات التماسك و الترابط [43].

و عليه، تنتفي النصية عن النص بانتفاء أحدهما. فالاتساق و النصية و الانسجام مصطلحات من ضروري تحققها في النص طالما هو كذلك. كما أنه يمكننا أن نقول على متتالية جملية ما منسجمة عندما تكون كل جملة فيها، تقبل التفسير و التأويل في خط داخلي، يعتبر امتدادا بالنسبة لتفسير غيرها من العبارات الماثلة في هذه المتتالية، أو من الجمل المحدودة المتضمنة فيها. و من هنا، فإن مفهوم النص تتحدد خصائصه

(**) عرب تمام حسان هذا المصطلح إلى «الحبك» و مختار محمصاجي إلى «الترابط الفكري». و صبحي إبراهيم الفقي اعتمد التماسك الدلالي، وسعيد حسن بحيري نفس الشيء، و بشير إبرير، الترابط الفكري.

[41] روبرت دي بوقراند، النص و الخطاب و الإجراء، ص 103.

[42] ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 146.

[43] جون لاينز، اللغة و المعنى و السياق، ترجمة: د/ عباس صادق وهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، ط1، 1987، ص 221.

بفكرة التفسير النسبي، أي تفسير بعض أجزائه، بالنسبة إلى مجموعها الكلي المنتظم[44].

و الكلام نفسه عن المعايير الأخرى، و لعل هذا ما يفسر اعتمادنا على التكامل الحاصل و القوى بينهما في استخراج أدوات الاتساق. و كذلك استعانتنا ببعض المعايير الأخرى، و كل ذلك من أجل تجسيد اتساق النص و ترابطه.

3-القصد (Intentionali):

يقول «جون أوستين» (John. L. Austin): « إن اللغة نشاط و عمل ينجز.. بنية و قصد يريد المتكلم تحقيقه، جراء تلفظه بقول من الأقوال »[45]. و لقد جعل «قراند» من هذه البنية معيارا قائما بذاته موجود في كل نص، لأن النصوص مدونة كانت أو محكية يتم تركيبها عن قصد من قبل على هيئة وحدات كاملة متميزة ذات بدايات و نهايات محددة [46]، فالقصد يتضمن موقف منشئ النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالسبك و الالتحام، و أن مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها [47]. إن القصد هو التعبير عن هدف النص.

و قد أعرب «امبرتو ايكو »(Eco) عن عجزه في إعطاء تحديد تجريدي لمقولة «قصدية النص»؛ لأن قصدية النص ليست معطاة بشكل مباشر، و حتى إذا حدث و كانت كذلك فستكون شبيهة في هذا بـــ «الرسالة المسروقة» فرؤيتها محكومة بإرادة الرائي، و هكذا إذا كان بالإمكان الحديث عن قصدية النص فإن ذلك مرتبط بتخمينات القارئ [48].

---

[44] ينظر: سعيد حسن بحيري، المرجع نفسه، 128.

[45] خوله طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص 246.

[46] جون لاينز، المرجع نفسه، ص 219.

[47] روبرت دي بوقراند، النص و الخطاب و الإجراء، ص 103.

[48] امبرتوا ايكو، التأويل، (بين السيميائية و التفكيكية)، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربـــي، المغـــرب، ط1، 2000، ص 77.

و أشار الباقلاني – قبل ذلك – إلى القصدية بقوله: « إنما يعد الشعر شعرا إذا قصده صاحبه؛ و تأتى له و لم يمتنع عليه.. إن الشعر إنما يطلق متى قصد إليه على الطريق الذي يعتمد و يسلك... »[49]، فالشعر هو «نص»، و القول بـــ «التأتي له»يعني التماس أبوابه و اتخاذ الوسائل المفضية إليه. و هذا يعنى أن الشعر ليس مجرد نشاط عابر، يزجي صاحبه وقت فراغه، بل هو نشاط مقصود يلتمس له أسبابه، و يهيئ له نفسه و قد راته » [50].و هناك مدى من التغاضي، برز عند قراند، في مجال القصد؛ حيث يظل القصد قائما من الناحية العملية، حتى مع عدم وجود المعايير الكاملة للسبك و الالتحام، و مع عدم تأدية التخطيط إلى الغاية المرجوة [51].

4- المقبولية (Acceptabillity):

و هناك من عرب هذا المصطلح بـــ «الاستحسان»، و هو معيار يركز على المتلقي (السامع / القارئ)، حيث يتضمن موقف مستقبل النص إزاء كونه صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك و التحام [52]، و يعنى هذا أن يكون النص مقبولا لدى متلقيه، فلا يشعر أن فيه قصورا أو نقصا، أو تشويها من حيث الأسس العامة التي يقوم عليها النص، و لقد كان القارئ ـــ دائما ـــ أقل الثلاثة حظا من الاهتمام، و هذا من دواعي العجب؛ إذ بدون القارئ لن تكون هناك نصوص أدبية على الإطلاق، لأن دور القارئ يساوي في الحيوية دور المؤلف لكونه يتلقى النص من خلال خبرته الشخصية و الاجتماعية، أو يمارس عليه سلطته بعد أن استحسنه، و هذا ما يمنح القراءة فاعلية إبداعية متميزة.

و نجد للمقبولية ـــ أيضا ـــ ، جانبا من التغاضي، و ذلك في حالة عدم وجود شركة في الغايات بين المستقبل و المنتج حتى لو كان النص نصا. مثلا:

---

[49] أحمد يوسف على، قراءة النص (دراسة في الموروث النقدي) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص 225.
[50] المرجع نفسه، ص 225.
[51] روبرت دي بوقراند، النص و الخطاب و الإجراء، ص 103، 104.
[52] قراند، النص و الخطاب و الإجراء، ص 104، و ينظر: سعيد حسن بحيري، علـم لغـة الـنص، ص 146، و انكيفست، الأسلوبية، اللسانية، ص 105.

- علي: هل جاءك محمد يا خالد، ليلة أمس ؟ (نص 1)

- خالد: آه، إنني مريض، أريد أن أنام (نص 2).

من خلال هذه المحادثة. نستنتج أن صاحب (نص 2) لم يقبل (نص 1)، و الدليل جوابه البعيد كل البعد عن السؤال. و ما هذا إلا لعدم وجود شركة في غاياتهم. لأن المقبولية تتعلق بموقف المتلقي الذي يقر بأن المنطوقات اللغوية تكون نصا متماسكا مقبولا لديه؛ كما يقر علاقتها معه، و المتمثلة في التجاوب المتبادل.

5- الموقفية (Situationality):

و يتطابق هذا المعيار مع المقولة التراثية البلاغية «لكل مقام مقال» ذلك أن النص يجب أن يكون مطابقا لمقتضى الحال. و يتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه. و يأتي النص في صورة عمل يمكن أن يراقب الموقف و يغيره » [53]، و ما يمكن استخلاصه أو ملاحظته، ذلك أن النص يجب أن يكون مطابقا لمقتضى الحال، و قد طور هذا المفهوم إلى درجة كبيرة كل من «هاليداي» و «رقية حسن» (1976) في نظرية الريجستير (Register) المعروفة، و التي باختصار شديد «ضرورة أن يكون النص متساويا مع الموقف و نوعية المشتركين في الخطاب» [54]، فالموقفية مناسبة النص للموقف. فمثلا: لا يكتب الطبيب على الوصفة الطبية أغنية راقصة، و لا يغني الرئيس في حفل اختتام الموسم الدراسي الجامعي، ذلك أن الخروج على الأنماط و الأعراف المتعارف عليها يذهب بمصداقية الكلام و يخرج النص عن مقتضى الحال، و يخرجه إلى اللانص، كما فعل عبد الفتاح كليطو عندما اعتبر النص الذي ينعدم فيه السياق لا نصا؛ باعتبار أنه حتى يصير الكلام نصا ينبغي أن ينتمي إلى ثقافة معينة [55].

---

[53] روبرت دي بوقراند، المرجع نفسه، ص 104.

[54] مختار محمصاجي، لسانيات النصوص.. ماهي ؟، معهد الترجمة، جامعة الجزائر (محاضرة)، ص 09، و ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 146

[55] أحمد يوسف، بين الخطاب و النص، مجلة تجليات الحداثة، جامعة وهران، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، ص 53.

و النص وحدة كلية كبرى – كما أشرنا إليه سابقا –؛ إذ لا نجد في دراسة أصواته و صرفه و نحوه و دلالته أمرا كافيا لتحليله، بل يجب أن تراعى العلاقة الجوهرية بين تلك المستويات و مفاهيم السياق و المقام و الاتصال و المغزى، حتى يمكن أن نتجاوز مراحل الألفة و التأثر و الاستجابة، فيكون إسهام القارئ في النص لا يقل عن منتج النص ذاته.

6- الإخبارية (Informatinity):

و هو العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصية أو الوقائع في عالم نصي في مقابلة البدائل الممكنة » [56]، و الإخبارية تتعلق بتحديد جدة النص، أي توقع المعلومات الواردة فيه أو عدم توقعها » [57]؛ حيث يهدف كل نص من النصوص إلى أن يقدم بعض المعلومات لقارئيه و سامعيه في مختلف الأماكن عبر كل العصور، و تختلف طريقة وضع المعلومات في النص بحسب نوع النص، و الملاحظ أن الإخبارية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، و عند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال [58]، حيث أن كمية المعلومات التي يحتوي عليها النص تقل حين يتحول النص إلى التعبير الأدبي، و تصل المعلومات إلى أدنى مستوى لها حيث يكون النص قصيدة شعرية جيدة؛ لأن القصيدة الشعرية تقوم على فكرة تتضمنها كلمة واحدة أو عبارة واحدة، و يكون ما في القصيدة مجرد توسعه للفكرة الأساسية. و كذلك الأمر بالنسبة للكتابة الروائية، و لكن بدرجة أقل؛ إذ يستطيع أديب أن يكتب لنا قصة «مجنون ليلى» التي يمكن أن تجعلها في خمسة أسطر أو في خمسمائة صفحة، و يكون ذلك حشوا وظيفيا، باعتبار أن لكل نص إعلامية صغرى على الأقل تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع [59].لأن هذه الأعمال يجب أن تحمل للقارئ و لو رؤية بسيطة لهذا العالم تُعلِمُهُ بها.

---

[56] دي قراند، المرجع نفسه،ص 104.

[57] سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 146.

[58] قراند، المرجع نفسه، ص 105.

[59] قراند، النص و الخطاب و الإجراء، ص 105، و ينظر: محمصاجي مختار، لسانيات النص ما هي ؟ ص 08، و ينظر محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ص 125 و ما بعدها.

و تجدر الإشارة إلى أنه إذا كان الحشو الوظيفي مقبولا في الأعمال الأدبية، فهو غير مقبول في غيرها. لذلك وجب على الناص / المتحدث توزيع معلوماته في النص بحيث لا يكون فيها قصورا أو زيادة تخل بالتماسك العام للنص [60].

7- التناص (Intertextuality):

ينبغي الوقوف عند هذا المعيار موقف الحذر لأن الكثير من الذين تعرضوا لهذا المصطلح لم يفهموه الفهم الصحيح، فاعتبروه تكرارا لما أنتجه الآخرون، و أن الاختلاف بين النص الجديد و النصوص القديمة هو اختلاف في الشفرة فقط، و هذا خطأ؛ ذلك أن الذي أوجب الاهتمام بفكرة تداخل النصوص هو محاولة معرفة الكيفية التي ينتج بها المتحدثون نصوصا جديدة، و يستقبلون بها نصوصا لم يسمعوها من قبل. و هذا يحيل إلى مفهوم القدرة عند « نعوم تشومسكي» (Noem Chomsky)، كما أن «رولان بارث» (R.Barths) يجعل من الأدب نصا واحدا، لأن جميع الأعمال الأدبية هي من صنع كاتب واحد غير زمني، و غير معروف [61]؛ فكل نص تناص ــ حسب تعبير بارث ــ إذ أن النص يظهر في عالم مليء بالنصوص (نصوص قبله، نصوص تطوقه، نصوص حاضرة فيه..)، و في ذلك يقول بارث: «التناص ليس دائما سرقة، و إنما قراءة جديدة،أو كتابة ثانية ليس لها نفس المعنى الأول، و من هنا كان التناص صورة تضمن للنص وضعا ليس للاستنساخ و إنما للانتاجية» [62].

و قدرة الكاتب على التفاعل مع نصوص غيره من الكتاب لا تتأتى إلا بـــ «امتلاء»خلفيته النصية بما تراكم من تجارب نصية، و قدرته على تحويل تلك الخلفية إلى تجربة جديدة تسهم في التراكم النصي القابل للتحويل و الاستمرار بشكل دائم [63]، إذ أن التناص يعتبر معيارا أساسيا في نصية النص؛ و يبرز ذلك من خلال

---

[60] محمصاجي مختار، لسانيات النصوص.. ما هي ؟، 09.

[61] أنور المرتجي، سيميائية الـنص الأدبـي، مكتبـة دار الآفـاق، دار البيضـاء، المغـرب، 1987، ص 45، و ينظر: محمصاجي مختار، المرجع نفسه، 09.

[62] عمر أوكان، لذة النص عند بارث، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ص 1996، ص 29، 30.

[63] سعيد يقطين، الرواية و التراث السردي، (من أجل وعي جديد للتراث)، المركز الثقـافي العربـي، ط1، 1992، ص 10، 11.

كونه ممارسة تتجسد من خلالها مقدرة الكاتب على التفاعل مع نصوص غيره من الكتاب، و على إنتاجه لنص جديد، فكان التناص – بذلك– " تبادلا، حوارا، رباطا، اتحادا، تفاعلا بين نصين أو عدة نصوص في النص، تلتقي هذه النصوص تتصارع يبطل أحدهما الآخر، تتساكن، تلتحم، تتعانق؛ إذ ينجح النص في استيعابه للنصوص الأخرى و تدميرها في ذات الوقت. إنه ثبات و نفي و تركيب" [64]. و لم تذهب «كرستيفا جوليا» (Julia Kristiva) بعيدا، في كل ما قيل سابقا؛إذ ترى أن كل نص هو عبارة عن لوحة فسيفسائية، و من الاقتباسات. و كل نص هو تشرب و تحويل لنصوص أخرى [65]؛ إن كريستيفا تجعل من التناص قراءة أقوال متعددة في خطاب واحد تحيلنا إلى خطابات أخرى متعددة يمكن لها أن تتطابق مع النص الأدبي المتعين، و هو عينه ما ذهب إليه « دبوقراند» بقوله: «التناص عبارة عن علاقات بين نص و نصوص أخرى مرتبطة به وعت في حدود تجربة سابقة سواء بواسطة أم بغير وساطة »[66].

إذن، هذه المعايير السبعة التي تجعل من النص نصا – كما قدمها قراند و دلاسلر–، إنها تحقق له كما له و أنموذجيته. كما تمنحه الجواز، لكي يلج الصدر، و يستقر في الذهن. و لعلها المعايير التي سولت لرعيل من الباحثين أن يقترحوا نماذج نصية، نجدها صورا للنص الكامل، الذي يجسد لنا الاتصال اللغوي مثل رابيليه (W.Raible) و جوليس (E.Gulich)، اللذان قدما نموذجا لهذا الاتصال [67] :

---

[64] عمر أوكان، المرجع نفسه، ص 29.

[65] نور الدين السد، الأسلوبية و تحليل الخطاب (تحليل الخطاب الشعري و السردي)، ج2، دار هومـــة، الجزائـــر، ص 96.

[66] قراند، المرجع نفسه، ص 104.

[67] سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 93.

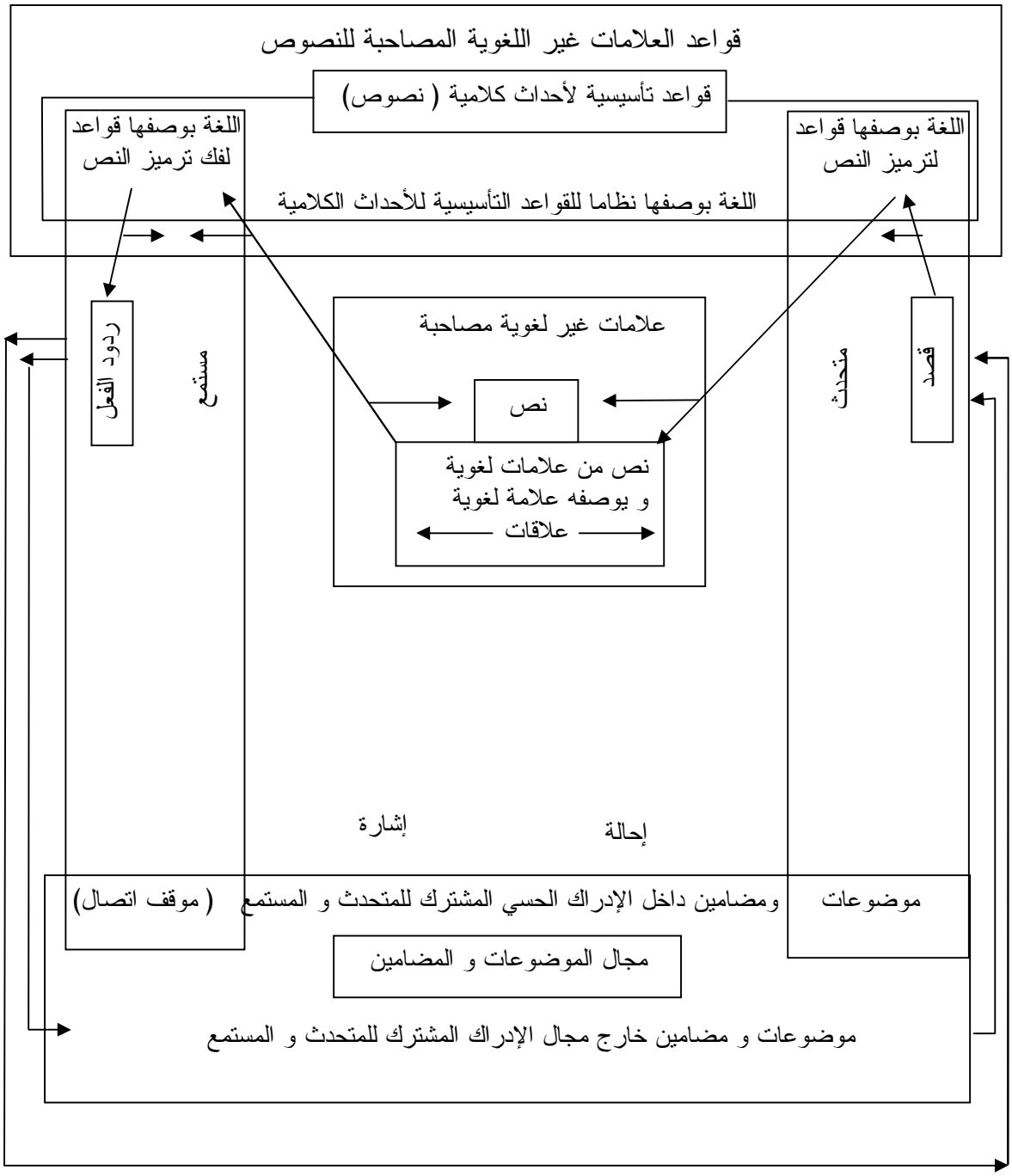

تخطيط لنموذج الاتصال اللغوي الذي وضعه جوليش / رايبله

III – مفهوم الاتساق:

يقال الوسق، أي ضم الشيء إلى الشيء، و في حديث أحدهم: «استوسقوا كما يستوسق جرب الغنم أي استجمعوا و انضموا.. فكل ما انضم، قد اتسق. و الطريق يأتسق و يتسق أي ينظم، و اتسق القمر: استوى، و اتساق القمر: امتلاؤه و اجتماعه، و استواؤه ليلة ثلاث عشر و أربع عشر.. و منه فالاتساق هو الانتظام »[68].

و جاء في متن اللغة: اتسق و يتسق و يأتسق الشيء: انضم و انتظم.. و اتسقت الإبل: اجتمعت، و اتساق القمر امتلأ و استوى ليالي الابدار، و المتسق من أسماء القمر، و من كلامهم « فلان يسوق الوسيقة، أي يحسن جمعها و طردها» [69].

و ما يلاحظ عن التعريفين المعجميين أنهما اشتركا في جعل الاتساق،ضم الشيء و الانتظام و الاجتماع و الاستواء الحسن.

و لم تبتعد المعاجم الغربية عن ذلك، فقد جاء في معجم «Exford» أن الاتساق هو «الصاق الشيء بشيء آخر، بالشكل الذي يشكلان وحدة مثل: اتساق العائلة الموحدة، و تثبيت الذرات بعضها ببعض لتعطي كلا واحدا.. »[70] فهو القوة على الالتصاق و الانتظام و التناغم.

فالاتساق شرط أساسي في المجموع، حتى يكون كلا موحدا، و هو مفهوم لا يحدث إلا بوسائل يقول عنها: «والفريد روتجيه» (Wilfrid Rotgé) «كل الأدوات النسقية النحوية العاملة، التي تجيز ربط قطعة بقطعة أخرى.. و تلعب دور الجامع الاتساقي » [71] في النص،فنحن نحصل على نص ما عندما يمتلك هذا النص مجموعة

---

[68] ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، المجلد العاشر، دار صادر بيـروت، ط6، 1417هـــ/1997م، ص 379 ــ 380.

[69] أحمد رضا، معجم متن اللغة مادة(نص)، ص 755.

[70] Oxford (advanced Learner's Encyclopedia), Oxford University , press , New York , Oxford 1989, p.173.

- and , Logman advanced (American DICTIONARY), Harlow , England , 2000 , p275

[71] Wilfrid rotgé, Le point sur la cohesion en Anglais.. , English Linguistics ,Sigma. Anglophinia, press Universitaires du mirail , n° 2 , 1998 , p.183.

الوسائل الاتساقية؛ فيكون له بذلك درجة من التنسيق و التنظيم الداخلي الموجه نحو غاية خاصة به، و الأمر المؤكد أن هذه الوسائل الاتساقية تشتمل على انتقالية الكلمات إلى جمل، والجمل إلى نصوص.

و بالتالي يعني بالاتساق، ذلك الترابط بين التراكيب و العناصر اللغوية المختلفة لنظام اللغة [72]؛ حيث تتآزر التراكيب و العناصر لتشكل وحدة متآلفة متناسقة، متسقة، بما تلعبه مختلف الروابط من دور في تلاحم الجمل بعضها ببعض، لأن اجتماع العناصر الأصول، و العناصر النحوية و الكلمة و الجمل اجتماعا عاديا بالمفاهيم أو بمجموعات من المفاهيم التي يتعلق بعضها ببعض في أنظمة متماسكة هو نفسه حقيقة اللغة [73]. فالاتساق و الانسجام هما أصل في لغتنا المتداولة، إنهما حقيقتها ــ على حد تعبير سابير (Edward Sapir) ــ بل هما أكثر من ذلك، لأنه ما من نظام وظيفي يتأسس في الحياة الإنسانية، إلا و يكون الاتساق و الانسجام عصبيه المحركين، فلا يمكن للحياة أن تنتظم و تتسق دونهما.

و الاتساق ــ كما سبقت الإشارة ــ هو أحد المعايير النصية السبعة و أهمها، فنجده مظهرا لدراسة النسيج النصي. كما نجده عاملا من العوامل الأساسية لديناميكية المجموع.. الاتساق هو القوة [74] فيه،باعتباره «الغراء الذي تمتلكه القطعة المكتوبة الموحدة. بكلمات أخرى، تكون القطعة متسقة إذا التصقت مجتمعة من عبارة إلى عبارة و من فقرة إلى فقرة» [75]. و قد عرف تعريفات كثيرة، أهمها على الإطلاق، تعريف هاليداي و حسن الذي مفاده « أن الاتساق هو مفهوم دلالي، يحيل إلى

و ينظر: خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة: حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، مصر، رقم الإيداع 3781 / 92، ص 213.

[72] بشير إبرير، استراتيجية الانسجام في قراءة النص الأدبي (قصة سميرة عزام، دموع البيع نموذجا)، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة عنابة، الجزائر (مقال مخطوط)، ص 3، و يطلق د. بشير ابرير على الاتساق مصطلح الانسجام، في حين هذا الأخير عنده هو الترابط الفكري.

[73] ادوارد سابير، اللغة (مقدمة في دراسة الكلام)، الجزء الأول، ترجمة المنصف عاشور سلسلة مساءلات، الدار العربية للكتاب، تونس، 1995، ص 52.

[74] galissan&coste ,dictionnaire de didactique des langues , p:100.

[75] Judith Kilborn & Nathan Kriei, cohesion: using repetition and reference words to emphrasize key ideas in your writting , Last up date, 5 October 1999, URL ,http: // leo, stc loudstate. edu/ style/ cohesion, html.

العلاقات المعنوية القائمة داخل النص، و التي تحدده كنص » [76]، حيث أن الوحدة الدلالية للنص تأتي من الاتساق الموجود بين الجمل التي يتكون منها. فكل جملة في النص تعطي نوعا من الترابط مع الجملة التي تسبقها، و التي تلحقها، فتحتوي كل جملة على رابط اتساقي بالجملة التي تسبقها في النص، من جهة.وآخر بالجملة التي تلحقها، من جهة أخرى.

و بتعبير آخر، لقد أضحى الاتساق قدرا على كل نص؛ إذ نجد جملة في النص تحتوي على رابطة واحدة ــ على الأقل ــ تربطها بما حدث مقدما، و بعض آخر من الجمل يمكن أن يحتوى على رابطة تربطها بما سوف يأتي، لكن هذه نادرة جدا و ليست ضرورية لتعيين النص [77]، فوحدة الاتساق ــ في نظر الباحثين ــ القادر على التمييز بين النص و اللانص و من أجل أن يشكل كل مقطع لغوي كلا موحدا يجب أن تتوافر فيه خصائص معينة تعتبر سمة في النصوص و لا توجد في غيرها بغية تمييز ما نقر أو ما نسمع حول ما إذا كان نصا أو غير ذلك و عليه:

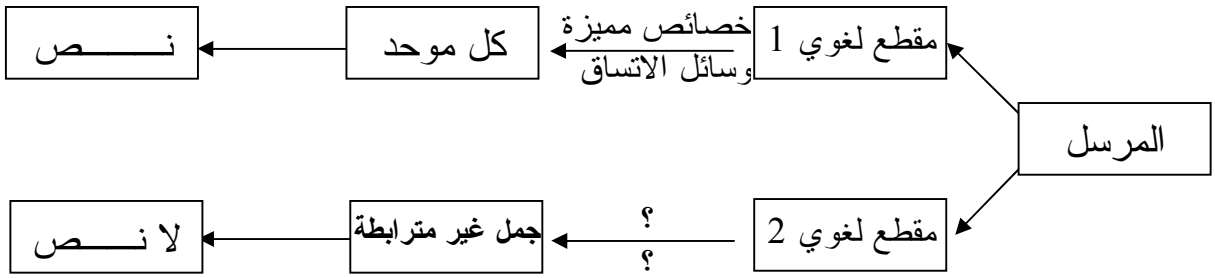

ما يلاحظ على هذا المخطط أن الاتساق شرط ضروري لتحديد ما هو نــص و ما ليس نص، فإذا توافرت وسائله (الاتساق) كان المقطع اللغوي كلا موحــدا، و إذا ما افتقد إلى هذه العناصر التي تميزه ــ و قد سبقت الإشارة إلى ذلك ــ أصبح المقطع اللغوي جملا غير مترابطة، و بالتالي يفقد مقومات وجوده كنص متسق متناســق [78]. و هذا يؤدي بالقارئ إلى مجه و رفضه لعدم فهمه لأن الغموض يؤدي إلى غمــوض

---

[76] Halliday & Ruqiîya Hassan, cohesion English , p.04.

[77] المرجع نفسه، ص 324.

[78] ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص 15، و سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 76، و ينظر: Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion English , p.26 , p.1-2.

الدلالة، و غياب الدلالة ناجم ــ لا ريب ــ عن غياب الاتساق » [79]. و لعل هذا ما كان يقصده القيرواني: «إذا كان (الكلام) متنافرا متباينا عسر حفظه و ثقل على اللسان النطق به، و مجته المسامع، فلم يستقر فيها منه شيء »[80] ؛ فهذه المقولة إشارة إلى الاتساق في الكلام، الأمر الذي يساعد على فهمه و حفظه ، و ذلك ببعده عن التنافر و التباين .كما هي كل المقولات التي قارنت بين حسن التأليف و الرصف، و سوء ذلك؛ فكأنها كانت تقارن بين النص المتسق و النص غير المتسق، فكل ذلك لبنات أولى، كانت تميز بين الشعر و اللاشعر، أما الآن بين النص و اللانص بوسائل مخصوصة، و هي وسائل الاتساق.

و بما أن الاتساق « لا يرتكز على ماذا يعني النص بل يركز على كيفية تركيب النص كصرح دلالي» [81]، و يبرز ذلك من خلال تلك المواضع التي يتعلق فيها تأويل عنصر من العناصر بتأويل العنصر الآخر، و يفترض كل منهما الآخر مسبقا؛ إذ لا يمكن أن يحل الثاني إلا بالرجوع إلى الأول و عندما يحدث هذا تتأسس علاقة الاتساق [82]؛ ذلك أن النص ليس مجموعة من الجمل التي تلي إحداها الأخرى. كما أنه وحدة دلالية و ليس وحدة نحوية، لأن الوحدة التي تميز النص هي وحدة معنى في سياق، و يرتبط النص في كليته بالمحيط الذي وضع و صنع فيه. و النص بوصفه وحدة وظيفية، فهو متسق على المستوى الداخلي (أي في كيفية تركيبه باعتباره صرحا دلاليا) و على المستوى الخارجي باعتباره نصا في موقف،لأن «كل بنية وظيفية متسقة داخليا و خارجيا» [83].

---

[79] Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion English , p.89.

[80] القيرواني (أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ت/456 هـ)، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1981، ص 257.

[81] Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion in English , p.26.

[82] Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion in English , p.15.

و ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ص 15.

[83] عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات و اللغة العربية (نماذج تركيبية و دلالية)، و دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985 / منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 1986، ص 324.

- و ينظر: ريما سعادة الجرف، مهارات التعرف على الترابط في النص (دراسة تقويمية)، مجلة رسالة الخليج العربي، العدد (78)، ص 81.
- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج 1، ص 95.

و قد جعل هاليداي و رقية حسن درجات للاتساق، فكلما ازداد عدد الوسائل الاتساقية في نص، ارتفعت درجة الاتساق فيه، و من ثم درجة النصية، و العكس كما أن هذه الدرجة قد تتفاوت داخل النص الواحد، لأنها قد تزيد في جزء و تقل في آخر. كما أنها قد تكون عالية داخل الفقرات، و هابطة، فيما بين هذه الفقرات أو العكس، و لهذه الحالة قدم هاليداي و رقية حسن الرسم البياني التالي [84]:

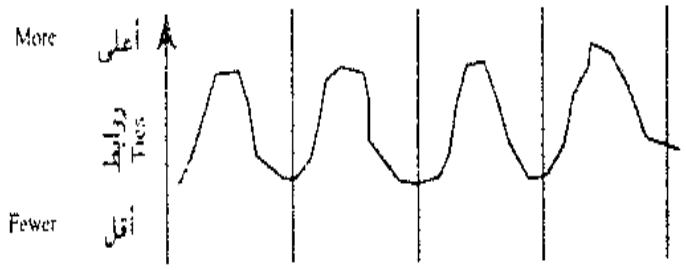

(٢)

Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion in English , p 291.

[84] جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية و اللسانيات النصية، ص 123.

يشير الخط الرأسي (I) في الشكل (1) إلى ما بين الفقرات، و في الشكل (2) إلى داخل كل فقرة أما الخط المتموج (N) فإنه بشير إلى مدى الترابط و قد ارتفع في الشكل (1) داخل الفقرة و انخفض فيما بين الفقرات، و في الشكل (2) حدث العكس. و يتجل ذلك في كيفية بناء و تركيب النص باعتباره صرحا دلاليا [85]،و لكن ما تجدر الإشارة إليه أن الاتساق – في نظر الباحثين – لا يتم في المستوى الدلالي فحسب، و إنما يتم أيضا في مستويات أخرى كالنحو و المعجم، و هذا مرتبط بتصور الباحثين للغة كنظام ذي ثلاثة مستويات: الدلالة (المعاني)، و النحو ــ المعجم ــ الأشكال، و الصوت و الكتابة (التعبير)، و يعني هذا التصور أن المعاني تتحقق كأشكال، و الأشكال تتحقق كتعابير [86]:

المعاني (النظام الدلالي)

↙

الكلمات [النظام ــ النحوي المعجمي (النحو و المفردات)]

↙

الأصوات / الكتابة (النظام الصرفي)

و هذا نفسه ما اعتبرته ايروين (Erwinne) (1986)، حيث جعلت من الاتساق «تلك الروابط الدلالية المهمة التي تربط جملا معينة و ما يجاورها من الجمل الأخرى»،

و لكن الاتساق ــ هنا ــ يختلف عن الوحدة العامة للنص التي نتوصل إليها عن طريق الأنماط التنظيمية الكبرى لجميع الأفكار في النص.الأمر الذي يحيلنا للتقابل، و قد أشرنا إلى ذلك سابقا في موضع آخر ــ بين الاتساق الرصف البنائي أو الاتساق، و الترابط الفكري المفهومي أو الانسجام، و هذا ما يوجب طرح بعض الآراء حول هذين

---

[85]Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion in English , p.26

[86] محمد خطابي، لسانيات النص، ص 15.

المصطلحين Cohesion و Coherence لأنهما من أهم المصطلحات في لسانيات النص؛ فمصطلح «Coherence»، الذي في أحد ترجماته الانسجام ــ و هو المعتمد في هذه الدراسة ــ يعنى العلاقات التي تربط معاني الأقوال في الخطاب، أو معاني الجمل في النص [87]. إنه مفهوم نسعى من خلاله إلى تقريب ماهية الموضوع (موضوع النص)، أين تكون وضعية القراءة طبيعية من قبل النصوص لكل من القارئ و المستمع، [88] و ذلك بعلاقات و روابط خاصة.

و مثل هذه الروابط تعتمد على معرفة المتحدثين و السياق المحيط بهم، لأن «التناغم [*] شيء موجود في الناس لا في اللغة، فالناس هم الذين يحددون معنى ما يقرأون و ما يسمعون، فهم يحاولون الوصول لتفسير ينسجم مع خبرتهم بالكون، و في الواقع لا تمثل قدرتنا على تفهم ما نقرأ إلا جزءا يسيرا من قدرتنا العامة على تفهم ما ندركه و ما نكتسبه في الحياة »[89]. و من ثم يصبح النص منسجما إذا وجدنا سلسلة من الجمل تطور الفكرة الرئيسية. و هذا يعني، الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم و العلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم [90].

أما مصطلح (Cohesion)، و الذي نعني به الاتساق – و هو مدار الحديث في هذه الصفحات – فنجده الجانب الآخر المقابل للانسجام، و الذي يخص الترابط في المستوى لبنائي /الشكلي، فيعرفه ديفيد كريستيال (David Krystal) بأنه «الاتصالات المنطقية المقدرة للاستعمال اللغوي»، و لن يتسنى ذلك إذا لم ندرس بناء النص و تركيبه و العوامل التي ساهمت في البناء، و التي يطلق عليها الروابط و العلائق داخل النصوص [91].حيث يظهر النص مجموعا، و الاتساق يجسد لنا وحدة أفكار هذا

---

[87] صبحي ابراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج 1، 94.

[88] J.R Martin ,cohesion and texture, dept of linguistics, university of sydney, p:1.www.goole.com

[*] و هو المصطلح الذي اعتمده «محمود فراج عبد الحافظ »، كترجمة Coherence في كتاب يول «معرفة اللغة».

[89] جورج يول، معرفة اللغة، ترجمة محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء لدينا الطباعة و النشر، إسكندرية، ص 146.

[90] جميل عبد المجيد، المرجع نفسه، ص 73.

[91] صبحي ابراهيم الفقي، المرجع نفسه، ج 1، ص 94. و ينظر: جورج يول معرفة اللغة، ص 145.

المجموع. إنه مفهوم ملائم للترابط الحاصل بين أعضاء المجموع؛ لإحساسها الوجودي بحاجة كل عضو إلى الآخر. و يعتبر الاتساق مفهوما يصلح بـــه ترجمـــة العلاقـــات الوجودية للالتصاق في تلك المواضيع المتوازنة و المتبادلة. إنه فعال للتقدم نحو أهداف المجموع شيئا فشيئا.[92]

فكل عمل متسق يرتسم و يتحقق في حركة عبر وسائل بنيوية للنحـــو، أيـــن تتحقـــق العلاقات الخطابية التي تتحكم في البنية النحوية. كما يتمظهر الاتساق في أنه يســـتلزم علاقات غير بنيوية تسبق العبارة داخليا وعلاقات تحيل إلى ما فوق الوظيفة النصـــية (حتى و إن كانت تعارض ما هو فكري أو المعنى الداخلي الشخصي) [93]، و كل ذلك سعيا لتحقيق وحدة النص، و الترابط و تماسكه بشكل الذي يسمح للقارئ إعادتـــه، إذا فرغ من قراءته.

و تعد هذه العوامل مهمة في حكمنا على النص بحســـن الرصـــف، الســـبك و التأليف ـــ كما قال به القدماء، و عليه فالاتساق و الانسجام كلاهما مهم لتحقيق نصـــية النص باعتبارهما وجهين لعملة واحدة هي النص – كما أسلفنا القول –، و هما مرتكز قوي لذلك، إذ لا يمكن نفي أحدهما في عملية إثبات الاتساق أو الانسجام؛ فالاتســـاق لا يكفي لتكون لنا قدرة على فهم ما نقرأ. فمن السهل بما كان أن ننشئ نصا محكمـــا بـــه كثير من روابط الجمل، و لكن يصعب معهـــا تفســـير الـــنص[94]، و ذلـــك لانعـــدام الانسجام.الأمر الذي يجعلنا نعتبر « الاتساق بنية شكلية تتميز بترتيب البنية الدلاليـــة: تنظيم المعلومات– معرفة الجديد من الأحداث في النص – تقديم الرسالة – موضـــوع النص – موضوع الموضوع – التوازي، الذي يعطي الحركية للنص و المأخوذة مـــن هذه الطبقة الشكلية ». [95]

---

[92] R.Galissan & D.Coste, dictionnaire.. , p:100.

[93] J.R Martin , cohesion and texture , dept of linguistics , university of sydney , p: 3.www.goole.com

[94] جورج يول، معرفة اللغة، ص 146.

[95] Gilles Lemine , Tiré de langue française , vision systèmique (application à la langue française de la thèoriede M.A.K.Halliday et de R. Hassan , p: 2.

و عليه فالتماسك في النص لا يعتمد على ترابط الجمل في المستوى الشكلي بوسائل مخصوصة- الأمر الذي يعنى به الاتساق- بل لا بد له من عامل آخر يحدث ربط المعاني التي يحويها النص، و هذا ما يعني به الانسجام.

أما محمد مفتاح، فجعل منهما مشتقين من مفهوم أكبر و من مصطلح أكبر هو الالتحام.و قد عبر عن ذلك بقوله: «الالتحام الذي قد نشتق منه التنضيد و التنسيق، و مع أنه من الصعوبة بما كان الفصل بين هذين المفهومين، فإننا سنفعل ذلك مواضعة، و هكذا،لأننا سنعني الجمل التي سنجد فيها أدوات العطف و مختلف الضوابط الأخرى التي تعلق جملة بجملة. و يعنى بالتنسيق العلاقات المعنوية و المنطقية بين الجمل حيث لا تكون هناك روابط ظاهرة بينها [96]. فكأن "مفتاح" يريد أن يجعل من التنضيد اتساقا ــ وفق المفهوم اللساني النصي ــ، و يجعل من التنسيق انسجاما، و كل واحد منهما لا يستقيم عوده إلا بالآخر. و كلاهما يشكلان عنصرا من عنصر أكبر هو الالتحام و التماسك، كما ذهب لذلك رعيل من الباحثين الذين ربطوا الانسجام (Coherence) بالروابط الدلالية المختلفة ــ أي بالجانب الدلالي ــ ؛ إنه يختص بالوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص.. أي الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، و التي نخطها أو نراها بما هي كم متصل على صفحة الورق. و هذه الأحداث ينتظم بعضها بعض مع بعض تبعا للمباني النحوية، و يجمع هذه الوسائل مصطلح عام هو الاعتماد النحوي » [97].

و ربطوا الاتساق (Cohesion) بالجانب الشكلي، إنه التماسك الشكلي ــ عندهم ــ الذي يرتبط بالروابط الشكلية الموجودة على البنية السطحية للنص من إحالة، حذف، وصل، استبدال، تكرار، موضوع، الخطاب، السياق...إلخ،و هو معتمدنا في هذا البحث،و هذا الرأي أدى بالكثير من الباحثين إلى أن يعتبروا المصطلحين معا تماسكا نصيا، و من ثم يجب التوحيد بينهما باختيار أحدهما. و هو (Cohesion)حيث لا

---

[96] محمد مفتاح، ديناميكية النص، ص 44.

[97] جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة.. ص 70. و ينظر: حماسة عبد اللطيف، في بناء الجملة العربية، ص 191، حيث جعل من التماسك الذي هو الترابط ــ عنده ضربان: ترابط نحوي، و آخر دلالي

جدوى من هذه التفرقة، ثم يقسم هذا التماسك إلى تماسك شكلي، و آخر دلالي؛ فيهتم الأول بدراسة علاقات التماسك الشكلية، بما يحقق التواصل الشكلي للنص، أما الثاني، فيهتم بدراسة علاقات التماسك الدلالية أجزاء النص من ناحية، و بين النص و المحيط به من سياقات من ناحية أخرى [98].و كلها علاقات تساهم – على اختلافها – في تخلق و تماسك النص بشكل من الأشكال، باعتباره فضاء مستمرا يجمع عدة عناصر مترابطة متشابكة فيما بينها.

و هكذا، و من حيث إن الاتساق و الانسجام وجهين لعملة واحدة هي وحدة النص، فإنه لا نستطيع بما كان دراسة أحدهما بمعزل عن الآخر مع بقاء الروح فيه، لأن الدلالة هي لب كل الظواهر الإنسانية فما بالك باللغوية، و خاصة النص إذا كان مقصودا، فيجتمع الاثنان(الاتساق و الانسجام) و يتفاعلان في النص، ليعرف به، و من أجل أن يظهر النص للقارئ متماسكا؛لأن الانسجام مع احترام الموقف يجعل النص كلا موحدا و هذا الانسجام بالضرورة يؤدي إلى اتساق هذا النص، اتساقا حاصلا بالقوة.

و عليه فإن القارئ لهذه الدراسة الموسومة بالاتساق النصي و أدواته في ديوان النخلة و المجداف، يجدها قد استغلت إلى حد ما أمورا دلالية كان لا بد من توافرها في التحليل.لمعرفة كيفية اتساق النص، بأن أصبح كتلة واحدة تؤدي كل ذرة منه إلى الذرة التي تليها، و متعلقة بالذرة التي سبقتها. و ذلك مع الإيمان بأن الاتساق يتعلق بالبنية السطحية الشكلية للنص، و الانسجام ما يتعلق بالجانب المفهومي الدلالي الفكري فيه. الاتساق إذن عبارة عن وسائل و أدوات تربط أجزاء النص بعضها ببعض كالعناصر التي سبق ذكرها، و غيرها من الأدوات التي تساهم في تراصفه البنائي المتناسق، و هذا سعينا في هذه الدراسة.

و لعلنا لا نجانب الصواب إذا ذهبنا إلى أن الاتساق لا يخرج عما قدمه لنا الجرجاني، و سار على ذلك كل من تشومسكي و فان ديك.

---

[98] J.R Martin , cohesion and texture , dept of linguistics , university of sydney , p: 3.www.goole.com)

ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج1، ص 95، 96

IV – الاتساق النصي في التراث:

إذا كان هناك مفهوم ينسجم مع الاتساق في التراث، فهو بلا شك مفهوم النظم، فهذا الأخير ليس له إطار يحدده أو سور يحيط به بدقة، و من الصعب تلخيص مدلوله ، و لكن نقول «هو أن تتحد أجزاء الكلام، و يدخل بعضها في بعض،و يشتد ارتباط ثان منها بأول، و أن يحتاج إلى وضعها في النفس وضعا واحدا؛ فالكلام أو الجملة وحدة متماسكة العناصر لها نظامها و علاقاتها الداخلية، و لها توزع، و تعدد و نظم مدلولي تام »[99].

و النظم عند الجرجاني هو نظير للنسج و التأليف و الصياغة و البناء و الوشي، و التحبير، و ما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض [100] و يعني عنده كيفية تركيب الكلام انطلاقا من الجملة البسيطة وصولا إلى نظم النص في تراكيبه الصوتية و الدلالية و النحوية و البلاغية و الأسلوبية و الغيبية الإعجازية. إنه عبارة عن تركيب لغوي على نحو فريد من التماثل و التجانس و التعادل و التآلف في أجزاء الأسلوب؛ « إنه تأليف الحروف و الكلمات و الجمل تأليفا خاصا يسمح للمتكلم و السامع أن يرتقيا بفضل بديع التركيب إلى مدارك الإعجاز في المعاني علما بأن المعاني تملأ الكون و تعمر الفضاء، و اختيار تركيب من التراكيب في النص كاختيار مسلك من المسالك في البر و البحر قد يؤدي بالسالك ــ أي المتكلم ــ، إما إلى الوصول إلى الغاية التي يقصدها في بر النجاة أو إلى الضلال و الهلاك »[101].

و وفق رؤية الجرجاني، تجد أن «لا نظم في الكلام، و لا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، و أن الاهتمام بهذا الموضوع يكفل توضيح الخصائص الأدبية. فلقد راح يتأمل العلاقة بين أجزاء التعبير، و يحاول التعرف على تفصيلات الترابط بين

---

[99] المنصف عاشور، التركيب عند ابن المقفع في مقدمات كتاب كليلة و دمنة (دراسة إحصائية وصفية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 13.

[100] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في المعاني، شكله و شرح غامضه و خرج شواهد و قدم له وضع فهارسه د. ياسين أيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2002/1422، ص 357 أو ص 102.

[101] محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص 24، 25.

الكلمات التي أهملها النحاة قبله أو الاحتمالات المختلفة التي يتعرض لها الترابط بين عنصرين أو الإسناد ككل » [102]. و ذلك لأن الجرجاني ذهب إلى اعتبار المفردات اللغوية لا تمثل إلا ناحية جامدة هامدة من تلك اللغة، فإذا نظمت و رتبت ذلك الترتيب المعين، سيرت فيها الحياة، و عبرت عن مكنون الفكر، و ما يدور في الأذهان. و ليست اللغة –في حقيقة أمرها– إلا نظاما من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، تحتمه قوانين معينة للغة » [103].كما تحتمه أدوات الاتساق و وسائله.

فالنظم ــ عند الجرجاني ــ « لا معنى له غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم » [104]. و يتم ذلك بترتيب الألفاظ بحكم أنها خدم للمعاني و تابعة لها و خاضعة لمعاني النحو التي لا تخرج عن المقاييس اللغوية المعمول بها في الكلام الجاري عن سمت كلام العرب، و توخي النحو يقصد به توخي تلك المعاني الدالة على المعقولية، و التي لا تخالف المنطق العقلي، و لا اللغوي، و لا يستفاد معنى دون خضوعه لتلك القواعد النحوية التي هي أوضاع اللغة، و التي تساهم بشكل فعال في انسجام الكلام في السياق، حيث يقول الجرجاني: « و ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها و تلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل.. فما النظم إلا أن تقتفي في نظم الكلمات آثار المعاني، و ترتيبها على حسب ترتب المعاني في النفس »[105]، و لعل هذا ما أوزع في نفسه أن يشرح هذا مضيفا بعد عدة صفحات قائلا: « هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا و خطأه إن كان خطأ إلى النظم، و يدخل تحت هذا الاسم إلا و هو معنى من معاني النحو قد أصيب موضعه و وضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، و استعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا و أنت تجد مرجع تلك الصحة، و ذلك

---

[102] ينظر: تامر سلوم، نظرية اللغة في النقد الأدبي، ص 123.
[103] ابراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص 295.
[104] الجرجاني، الدلائل، ص 357.
[105] المرجع نفسه ، ص 102.

الفساد و تلك المزية، و ذلك الفضل إلى معاني النحو و أحكامه، و وجدته يدخل في أصل من أصوله، و يتصل بباب من أبوابه » [106]، فيؤكد الجرجاني، ــ هنا ــ أن الكلام لا يوصف بصحة نظم أو فساده، إلا برجوعه إلى معاني النحو و أحكامه، و يدخل في أصل من أصوله، و باب من أبوابه. و هذا بإسقاط صغير و بسيط، نجد أن هذا ، هو ما قال به هاليداي و حسن عندما جعلا الاتساق هو المحك؛ بأن يكون الفاصل بين النص و اللانص.

كما يشير عبد القاهر في هذا النص النفيس إلى أمر بالغ الأهمية و هو « أن معاني النحو لا تقف عند حدود الجملة، بل تتجاوزها إلى النص، أو مجموعة الجمل » [107] ؛ لأنه لا تحكم على ناظم، إنه جيد النظم إلا إذا قرأت كل نظمه، و استوفيت القطعة التي نظمها، و في إطار هذا السياق أشار إلى اللانص و خاصة عند حديثه عن فساد النظم أو غياب ما سماه «تعلق الكلام بعضه ببعض»، و ذلك في قوله: «.. مما وصفوه بفساد النظم، و عابوه من جهة سوء التأليف، أن الفساد و الخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف أو إظهار أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه، و ما لا يسوغ، و لا يصنع على أصول هذا العلم »[108]. و ما ذلك إلا لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب [109] أي من النظم العجيب. و ما يسهم في ذلك النظم العجيب، هو أننا نقتفي في نظم الكلمات آثار المعاني، و ترتيبها على حسب ترتب المعاني في النفس، لذلك يقول الجرجاني «إنك ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك »[110]؛ فالألفاظ لا توضع متجاورة دون تعلق بعضها ببعضها، و إنما يرتبط بعضها ببعض بـــ «علاقات نحوية»، لا يتم بدونها كلام، و لا يفهم حديث، و لعلها هي نفسها ما طرقها «هاليداي و حسن » في إطار حديثهما عن الاتساق و أدواته و علاقاته؛ حيث

---

[106] الجرجاني، الدلائل، ص 127.

[107] محمود أحمد نحلة، علم المعاني، دار العلوم العربية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1410 هـ / 1990، ص 34.

[108] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 129.

[109] نفسه، ص 99.

[110] نفسه، ص 416.

أن هناك علاقات معينة إذا توافرت في نص ما ــ أي نص ــ تجعل أجزاءه متآخذة، مشكلة بذلك كلا واحدا،.. و هي خصائص تميز النص باعتباره كذلك مما يجعل النص وحدة دلالية » [111].

و بهذا هما يجعلان من الاتساق في النص قدرا محتوما، و عنصرا يجب حضوره حتى يكون النص نصا، و حتى يكون النظم نظما؛ فـ«كل عبارة (جملة) تمتلك بعض أشكال الاتساق عادة مع الجملة السابقة مباشرة و من جهة ثانية كل جملة تحتوى على الأقل على رابطة واحدة تربطهما بما حدث قبلا (متقدما)، و بعض من الجمل يمكن أن تحتوى على رابطة تربطها بما سوف يأتي لكن هذه ظاهرة نادرة، و ليست ضرورية لتعيين النص » [112]. إذن، للنص أدوات إذا خلا منها سواء كانت شكلية أم دلالية، يصبح جملا متراصة لا رابط يجمعها. إنه جسد بلا روح؛ و هذا يعني أن النظم و وسائله، عند الجرجاني، و الاتساق و وسائله عند علماء لسانيات النص، إذا انتفيا في النص، يخرج عن نصيته عند المحدثين، كما كان يخرج عند القدماء إلى سوء التأليف، و سوء النظم، الأمر الذي يدفع القارئ إلى استهجانه و مجه؛ لأن من أساسيات النظم البحث في علاقات الكلمات المتجاورة أو المتباعدة عن طريق الروابط النحوية » [113]، إذ ليس النظم، ــ عنده ــ إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، و تعمل على قوانينه و أصوله. و هذه المعاني يعقد لها أبوابا مثل: التقديم و التأخير، و الحذف، و الذكر، و الفصل و الوصل و التعريف و التنكير، و كل ما يحدث النظم في النص شكلا و دلالة؛ فالجرجاني يؤكد على أن ليس هناك كلام يوصف بصحة أو فساد، إلا و يرجع ذلك إلى معاني النحو و أحكامه. و يدخل في أصل من أصول النحو و باب من

---

[111] Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion in English , p.07

[112] المرجع نفسه، ص 324.

[113] محمد عبد المطلب، النحو بين عبد القاهر و تشومسكي، مجلة فصول، عدد الأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، المجلد الخامس، العدد الأول، أكتوبر / نوفمبر / ديسمبر 1994، ص 28، و ينظر: للاستفادة، الجرجاني، الدلائل، ص 108، 109.

أبوابه، فما النظم في الحقيقة إلا توخي هذه المعاني و تعلق الذهن بها، لكيفية المزج فيها، و الترتيب الذي أحكمت به، بانضمام بعضها إلى بعض [114].

و ما يمكن قوله عن هذا الإسهام؛ أن دخول النحو – هنا– قد حقق الهدف النظمي دون إغفال للجوانب الدلالية، بل إن غياب التركيب النحوي يؤدي بالضرورة إلى فقدان الجوانب الدلالية، حيث تصبح الألفاظ أشتاتا متغيرة لا تمثل لنا أي قيمة دلالية، في حين أنها في الأول كونت نسقا إبداعيا، و بهذا يؤول النظم في النهاية إلى نوع من الثبات و التغيير؛ فالثبات يتصل بالمعنى الأصلي. أما التغير فيتصل بالدلالة، و تنوعها من خلال العدول في التراكيب بالتقديم و التأخير، و الحذف و الذكر، و التعريف و التنكير... إلخ [115]، لأن غاية الجرجاني الكشف عن العلاقة بين أجزاء التعبير، و محاولة التعرف على تفصيلات الترابط بين الكلمات التي أهملها النحاة قبله أو الاحتمالات المختلفة التي يتعرض لها الترابط بين عنصرين , كما عند علماء لسانيات النص، خاصة هاليداي و رقية حسن، فالاتساق وفق منظوريهما، يشير إلى مجموعة من الإمكانات التي تربط بين شيئين [116] و يدرجان في ذلك العلاقات المعنوية، فهي التي تخلق النص، لأن أجزاء الكلام لا تنتظم إلا بالاتساق فيما بينها، و مع الأجزاء التي تندرج فيها، و في أوضاع معينة دون أخرى. و بعبارة أخرى، يشير إلى كل ما يرتبط بين أجزاء الجملة و أجزاء النص، دلاليا و شكليا؛ إذ إنه لا يركز على ماذا يعني النص بقدر ما يركز على كيفية تركيبه و بنائه باعتباره صرحا دلاليا [117]، كما أن النظم في جوهره «يتصل بالمعنى من حيث هو تصور للعلاقات النحوية، كتصور علاقة الإسناد بين المسند إليه و المسند، و تصور علاقة التعددية بين الفعل و المفعول به و تصور علاقة السببية بين الفعل و المفعول لأجله.. إلخ، ثم تأتي المزية من وراء ذلك بحسب موقع الكلمات بعضها من بعض و استعمال بعضها مع

---

[114] ينظر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 133، 134.

[115] ينظر: محمد عبد المطلب، النحو بين الجرجاني و تشومسكي، مجلة صول، ص 29، 35.

[116] Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion in English , p.10

[117] Halliday & Ruqaiya Hasan, cohesion in English , p.26

بعض »[118]؛ ذلك أن النظم يعني اكتشاف البنية الحقيقية، و هذا يترتب عليه تحديد العلاقات النحوية التي تجمع بين الجزئيات و تصل بينهما ثم تفسر هذه الجزئيات في الآن نفسه. و عليه فإدراك حقيقة جزئيات التركيب لا يكون ممكنا إلا إذا تعلقت بغيرها أي من خلال دورها في خلق النظم، فلا يفيد الوقوف عند الجزئيات كثيرا لأننا لا نتكلم ليفهم كل من يسمعنا جزئية واحدة , أو كل جزئية على حدة، بل إننا نفعل ذلك لننقل إليه دلالة مفيدة ذات جزئيات متسقة و منسجمة، تتآخذ و تتشابك، حتى يتعلق بعضها ببعض، و من ثم يأتي الحكم. وربما من أجل ذلك يقول الجرجاني، «إن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه و الحسن، كالأجزاء من الصيغ تتلاحق، و ينضم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين؛ فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه، و لا تقضي له بالحذق و الأستاذية، و سعة الذرع، و شدة المنة، حتى تستوفي القطعة و تأتي على عدة أبيات» [119].

و نشير بهذا إلى أن الناظم مثل مهندس البناء، و الجرجاني في نص نفيس و بديع قام بتلخيص نظريته في صورة هندسية، لا يعتقد أن الدراسات اللسانية القديمة أو الحديثة فكرت في مثل هذا التصور العجيب بين البناء اللساني و البناء بالآجر عند رصف البنايات و رصها في اتجاه أفقي و إعلائها في اتجاهها العمودي مع مراعاة الجهات و الأبعاد الأخرى و تكامل اللبنات أو تباينها و انسجام الأجزاء و تناسقها و اتساقها لتحقيق البنية في الصورة الهندسية التي اختارها المهندس لإنجاز بنائه المشيد طبقا للصورة المثالية التي ارتسمت في ذهنه قبل الشروع في البناء، و الناظم الذي تقوم هندسته على نظم أجرات النص ــ كلماته ــ و رصها في الجدار الكلامي رصا تراعى فيه الأبعاد الفضائية و السطوح المختلفة انطلاقا من النقطة، و المرور بالخط و الوصول إلى المساحة [120].

---

[118] محمد عبد المطلب، النحو بين عبد القاهر و تشومسكي، مجلة فصول، العدد السابق، ص 28.
[119] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 133.
[120] ينظر: محمد الصغير بناتي، المدارس اللسانية، ص 35، 39.

و في هذا يقول الجرجاني: « إن مما هو أصل في أن يدق النظر، و يغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام، و يدخل بعضها في بعض، و يشتد ارتباط ثان منها بأول، و أن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، و أن يكون حالك فيها، حال الباني يضع بيمينه ههنا، في حال ما يضع بيساره هناك. و في حال ما يبصر مكان ثالث و رابع يضعها بعد الأولين.. إلى أن يقول : و اعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته، أن لم يحتج واضعه إلى فكر و روية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق.. »[121]، إنه يشرح في هذا النص معنى الاتساق بصورة، تكاد تكون أقرب إلى مفهومه عند علماء لسانيات النص، بل تكاد تكون أوضح من شرحها في العصر الحديث.

و هكذا يحفظ الاتساق للنص نصيته ــ كما النظم يبعد الكلام (النصوص) عن ضعف التأليف و النسج، الذي تقع فيه النصوص بمخالفتها القانون النحوي المستمد مما ألفه العرب في لغتهم، و تداولته ألسنتهم في الكثير الغالب [122]. و هذه القوانين و المعاني هي التي تخلق حسن نسق النص،وذلك بأن تكون «الكلمات متتاليات متلاحمة، تلاحما سليما مستحسنا لا معيبا مستهجنا»[123]؛ لأنه عند ما تتشابك الأجزاء، و يفتقر كل واحد إلى الآخر، تتأسس علاقة الاتساق. و في ذلك قال الجرجاني : «لا نظم في الكلم، و لا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض و تجعل هذه سبب من تلك » [124]، و بهذا تتعالق الوحدات البنائية لتشكل نصا، فكل الوحدات النحوية من جمل و أقوال، و تركيبات متسقة داخليا، أي أن هناك علاقات معينة بتوفرها يتحقق للنص نصيته، فيصبح كلاما موحد الأجزاء؛ متسقا.

---

[121] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 137.

[122] بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية ، منشـــورات جامعـــة طـــرابلس، كليـــة التربيـــة، ط 1، 1975/1395، المجلد الأول ، ص 42.

[123] المرجع نفسه، ص 198.

[124] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106.

و في آخر هذا الفصل ارتأينا أن نعرض بعض المقولات التراثية المقاربة لمفهوم الاتساق. مع مراعاة فارق العصور، و ما سعينا هذا إلا لجعل إطلالة تراثية لهذا المفهوم و المصطلح الحداثي، الذي اهتمت به « لسانيات النص ». كما فعلنا في مقاربته مع مفهوم النظم عند الجرجاني، لأن هذا الخيط الذي يقوم بمهمة الربط بين ما هو تراثي، و بين ما نجده حداثي أمر ضروري لإحداث التواصل بين الأجيال و الحضارات و العلوم، و لأن للاتساق ملامح في تراثنا، و ليس الاتساق فحسب، بل نستطيع القول أن كل ما تقدمه لنا الحداثة، إنما له جذور في التراث، لأن التراث غني، نجده بحق هو ثروة الأجيال.

و في هذا نجد إشارة القرطاجني ، إلى ضرورة الانتقال من الجملة إلى النص من جهة مع ضرورة الاطراد، و الاتساق في النص حتى يحقق غايته و أهدافه، و ذلك في قوله: «.. لما يلاحظ في النظم من حسن الاطراد من بعض العبارات إلى بعض، و مراعاة المناسبة و لطف النقلة.. » [125].

و عن هذا تكلم ــ أيضا ــ أبو هلال العسكري قائلا: «.. و حسن التأليف يزيد المعني وضوحا و شرحا، و مع سوء التأليف و رداءة الرصف و التركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سبيا و رصف الكلام رديا لم يوجد له قبول، و لم تظهر عليه طلاوة .. و حسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، و تمكن في أماكنها و لا يستعمل فيها التقديم و التأخير، و الحذف و الزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام و لا يعمى المعنى، و تضم كل لفظة منها إلى شكلها و تضاف إلى لفقها. و سوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، و صرفها عن وجوهها، و تغيير صيغتها، و مخالفة الاستعمال في نظمها »[126]؛ لأن صحة السبك و التركيب، و الخلو من عوج النظم و التأليف، شرط لكمال النظم، و وضوح الفهم مثل الاتساق الذي عد النص ــ من خلاله ــ نصا باعتباره معيارا رئيسيا من معايير النصية لذلك نجدهم يشيدون بالشعر الجيد المسبوك،

---

[125] أبي الحسن حازم القرطاجني (ت 684)، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تقديم و تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 2، 1981، ص 364.

[126] أبو هلال العسكري و الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصاعتين (الكتاب و الشعر)، تحقيق، علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986/1406، ص 161.

و في هذا يقول الجاحظ: «أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا و سبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان » [127]

و إذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذ سماعه، و خف محتمله، و قرب فهمه و عذب النطق به، و حلى في فم سامعه، و لا يكون كذلك إلا إذا كان متسقا، فإذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه و ثقل على اللسان النطق به، و مجته المسامع، فلم يستقر فيها منه شيء. و على هذا نجد القيرواني يستحسن أن يكون البيت بأسره كأنه لفظة واحدة لخفته و سهولته، و اللفظة كأنها حرف واحد » [128]، و لو تسنى له أن يكمل هذه الفقرة النفيسة في كتابه لقال: «و القصيدة (نص)، كأنها جملة واحدة لتآخذ أجزاءها و تماسكها و اتساقها.

و يعتبر ابن طباطبا الشاعر أو الناص – بمعنى أعم– "كالنساج الحاذق الذي يفوق و شيه بأحسن التفويف، و يسد به و ينيره و لا يهلهل شيئا منه فيشينه. و كالنقاش الرفيق الذي يصنع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، و يشبع كل صنع منها، حتى يتضاعف حسنه في العيان. و كناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها و الثمين الرائق، و لا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها و تنسيقها » [129] لأنه يعلق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه و بين ما قبله. و لذلك راح يلزم كل شاعر جيد بشرط من الضروري اتباعه في تأليفه قائلا: «ينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره ، و تنسيق أبياته، و يقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنتظم له معانيها و يتصل كلامه فيها، و لا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه، و بين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه كما إنه يحترز من ذلك في كل بيت، فلا يباعد الكلمة عن أختها، و لا يحجز بينهما و بين

---

[127] أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ،البيان و التبيين،، تحقيق عبد السلام محمد هارون،، دار الجيل، بيروت، ج1، ص 55.

[128] القيرواني (أبي على الحسن بن رشيق الأزدي (ت 456 هـ)، تحقيق: محمد محي الذين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1401 هـ /1981، ج1، ص 257.

[129] ابن طباطبا، عيار الشعر، ص 43، 44.

تمامها بحشو يشينها. و يتفقد كل مصراع، هل يشاكله ما قبله: فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا يتنبه على ذلك إلا من دق نظره و لطف فهمه » [130] و كلها قضايا أصبحت في ما بعد من صلب اهتمام لسانيات النص.

كما أننا نجد مصطلح الاتساق ذاته، بغض النظر عن ملامح مفهومه، قد ورد في طيات كتبنا الفنية و قد سبقت الإشارة إلى إحدى المقولات بلسان الجرجاني، و أورد فيها مصطلح الاتساق، صراحة و عني به النظم، و قد قاربنا في موضع سابق بين المفهومين و نجد الثعالبي أيضا ــ أورد هذا المصطلح «اتساق النظم[*] » كما جاء أيضا في طياتها مصطلح الانسجام «و هو أن يأتي (الكلام) لخلوه من النقادة كالانسجام الماء في انحداره و يكاد لسهولة تركيبه و عذوبة ألفاظه أن يسيل رقة » [131]، و ذلك لسبكه الجيد و اتساقه، و هو ما عناه دي بوقراند (Debeau-grande) في تعريفه للاتساق عندما جعل منه مجموعة من العناصر و العلاقات، يسعى من خلالها إلى تنظيم النص، فتجعله يستقر في الذهن، كما تساهم في استرجاعه بطريقة منظمة إن أردنا ذلك.

و مثل هذه المبادرات كثيرة ــ أيضا ــ في كتب التفسير؛ لأننا نجد السيوطي قد تكلم عن الانسجام و حسن النسق الذي يعرفه بقوله: «هو أن يأتي المتكلم بكلمات متتاليات معطوفات متلاحمات تلاحما سليما مستحسنا» [132]، و السلامة تنجم عن الاتساق في النص.

و تكلم الزمخشري– مثل البلاغيين المفسرين لنص القرآن الكريم ــ عن الروابط التي تجمع آي القرآن، و التي تظهر بدقة النظر و طول التأمل، و هي روابط اتساقية

---

[130] المرجع نفسه، ص 165.

[*] اتساق النظم: و هو ما طاب قريضه و سلم من السناد و الإقواء و الاكتفاء، و الإجازة، و الإيطاء، و غير ذلك من عيوب الشعراء، و ينظر في ذلك أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية و تطورها مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان، 2000، ص 30.

[131] ابن حجة الحموي، خزانة الأدب و غاية الأرب، ج1، ص 417.

[132] السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية،ـــ بيروت، لبنان 1988/1408، ج 3، ص 276.

دلالية، كلما توفرت في نص كان أحسن لتلاؤم الكلام و أخذ بعضه بحجرة بعض [133].

و تحدث الزركشي- كذلك- عن ارتباط آي القرآن بالطريقة التي تستدعي فيها آية ذكر آية أخرى بشكل متناغم متلائم متسق، و أعطى كل الحالات لذلك [134]. و تبع الجرجاني، ذلك في إطار حديثه عن النظم و هو ما يقارب الاتساق سواء في أدواته الشكلية أم الدلالية؛حيث نجد النظم عنده- كما أسلفنا الذكر- تأليفا للكلمات و الجمل مترتبة المعاني، متناسبة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل، و قيل الألفاظ المترتبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما تقتضيه [135]، و بذلك يكون النظم عبارة عن «خضوع الكلام لنوامس الفكر و بروزه على هيئة تحاكي الروابط المنطقية التي يقيمها بين المعاني، فتكون البنية اللغوية صدى لبنية عقيلة منطقية سابقة »[136] و عليه يعتبر النص متماسكا بقدر ما تتوالى فيه الكلمات و الجمل صادرة عن كلمات و جمل أخرى مترتبة عليها سببيا، سواء كان ذلك على مستوى البنية السطحية أو العميقة. وكل هذا يكشف عن الإدراك الواعي لمفهوم الاتساق في النص عند المفسرين و البلاغيين العرب القدامي.

و تعرض النحويون و اللغويون العرب القدامى إلى هذا المفهوم في إطار حديثهم عن قضاياهم النحوية عبر أبواب النحو المختلفة، إلا أنهم يركزون على قضية الاتساق على مستوى الجملة فقط؛ حيث نجد في تعرضهم لقضية الإسناد، يركزون على الابتداء و الفاعلية و غير ذلك مما يتعلق بالجملة، و يلحون على وجود الرابط في جملة الصلة، و الخبر الجملة، و هذا ــ بعينه ــ تأكيد على ضرورة الاتساق، لكنه على مستوى ضيق؛ باعتبار أن النحو السائد قبل نحو النص، هو نحو الجملة؛ فيشير سيبويه

---

[133] الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج 1، ص 15.

[134] ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الفكر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط 3، 1980/1400، ج 1، ص 40، 54 و ص 72.

[135] الجرجاجي، التعريفات، ص 251.

[136] الأخضر جمعي، ائتلاف اللفظ و المعنى، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، ص 324، 325..

إلى أهمية وجود الضمير الذي يحيل على السابق، حتى يكون الكلام مفهوما و سليما و واضحا.فإذا خرج عن ذلك، باستغنائه عن الضمير الذي يعود قبلا و بعدا، و الذي يحدث الترابط في الجملة باعتبارها نصا صغيرا، يصبح الكلام – هنا – غير حسن، و هذا ما سيأتي توضيحه في عنصر الإحالة في الفصل التالي. و مثله المبرد الذي يؤكد الترابط بين المبتدأ و الخبر ليصح معنى الكلام، و تحدث الفائدة للسامع في الخبر..[137].و غيرهما ممن تحدثوا عن هذه القرائن التي تتوفر في الجملة لتحقق اتساقها.

و بالتالي، فإننا نجد للإتساق لمحات موجزة، قال بها البلاغيون و المفسرون و اللغويون و النحويون أيضا في إطار حديثهم عن الكثير من الجوانب المرتبطة بالاتساق شكليا و دلاليا، بين طيات كتبهم، غير أن ذلك لم ينته إلى صورة نظرية متكاملة مثل نظرية النحو المتصلة بالجملة، و هذا ما يدعو إلى تطوير ذلك باعتبار أن النص هو وحدة لغوية كبرى، و باعتباره ممثلا شرعيا للغة، و ذلك بمحاولة تطبيق الروابط و الأدوات لمعالجة النصوص كاملة، و هذا سعينا في هذه الدراسة التي تعد محاولة لعرض هذه الأدوات بمفهومها اللساني النصي الحديث من جهة، وعرض كيفية بروزها في تراثنا كمحاولة للتأصيل ليس أكثر، مع منحها مجالا حيويا يسمح لها بالتحرك و التجسد في نص القصيدة كنص موحد له كل اعتبارات الانسجام و الاتساق.

---

[137] ينظر: سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط 1، د. ت، ج 1، ص 23. و ينظر: أبي العباس محمد بن يزيد المبرد (210 – 285)، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، دار الكتاب المصري / البناني، (القاهرة ــ بيروت)، ط 2، 1979/1399.